الفصل الخامس

المراكز العلميّة

(تمهيد)

١- جزّين .

٢- عيناثا .

٣- الكرك .

٤- ميس .

٥- جُباع .

٦- مشغرة .

٧- زبدة الفصل.

المراكز العلميّة

تمهيد

لامراء في أن دراسة نموذجيّة لحركة فكريّة نموذجيّة تقتضي في الاعتبار الأول النفاذ إلى داخلها، حيث عالمها الفكري. ابتغاء رصدها وهي في حالة تفاعل بين مختلف التيارات والأفكار والمذاهب. لكن بالنسبة لبحثنا فإننا أمام حركة ذات خصوصيّة. يمكن إجمالها بما يلي:

أولاً: إنها حالة ذات صفة إعداديّة. سعت بالدرجة الأُولى إلى إعداد مثقفين مُنتمين، استجابة لحاجة مزُمنة. هي جَماع أزمتها التاريخيّة. المتمثّلة بالاستلاب الكامل، الناشئ من الاحتلال الأجنبي الطويل. ثم تداعياته وأبرزها سيطرة العناصر العسكريّة القادمة من الأطراف على موجة الجهاد. حاملة معها صبِغة ثقافيّة وشهوة سلطة. الأمر الذي جعلها عاجزة عن التعامل الإيجابي مع هُويّة المنطقة الثقافيّة بكامل عناصرها.

ثانياً: إنها كانت حالة متُنقلّة بين مراكز عمل متُعدّدة. وهذا عنصر أساسي فيها. أولاً لأنه، أعني التنقّل، تعبير عن مَعلم لايمكن إغفاله من هُويّة الحالة. التي لم تكن غير مجموعة كبيرة ومنُسجمة من المبادرات الفرديّة، التي عملت كل ما في وسعها لنشر وإعلاء اللون الثقافي الخاص للحركة. ثم إن الصفة المكانيّة كانت تُضمر أحياناً خصوصيّة فكريّة. وسنقف عند ما يُصدّق هذه الملاحظة فيما يأتي.

لذلك، وكيما تكون الدراسة على صورة الحقيقة، سنعمد إلى دراسة الحركة الفكريّة في جبل عامل الثقافي أثناء فترة البحث بدراسة مراكزها مركزاً مركزاً.

١- جزّين

(١)

«جِزّين»، بجيم مكسورة، ومُثنّاة تحتيّة ساكنة، ونون. هكذا ضبط السيد الأمين اسم القرية[١]. مُستنداً فيما يبدو إلى ما هو جار على الألسن محليّاً. ويقول أنيس فريحة، إن الاسم من الآراميّة، ويعني: «خزائن، مخازن. واحتمال آخَر: جزّازو الغنم. من جزّ. ويُفيد القصّ والقطع»[٢]. فإذا صحّ ذلك دلّ على أنها من المراكز السكانيّة القديمة. لكن لا ذكر لها في كُتُب البلدان المعروفة، كما لا ذكر للمنسوبين إليها في كُتُب الأنساب والسّير والطبقات وما إليها. ممّا يدلّ بمُجمله على أنها لم تكن شيئاً مذكوراً، قبل أن تُصبح «**منبع علماء جبل عامل**» على حدّ ماقال السيد الأمين أيضاً[٣]. لتغدو مذ ذاك علَماً حاضراً في المكتبة الشيعيّة الإماميّة. خصوصاً في كُتُب السّير والتأريخ الثقافي. سواء باسمها أم بأسماء المنسوبين إليها.

إن التضادّ البالغ بين المستويين البادي فيما علّقناه أعلاه، ليعكس لنا حجم الخطوة التي خطتها جزين بنفسها أولاً، ثم بجبل عامل تالياً وبالتبع. وعبارة السيد الأمين ذات الوقع القوي «منبع علماء جبل عامل»، وإن لم تكن مبنيّة على دراسة مُركّزة على القرية ودورها، لكنها تُلخّص إنطباعاً صادقاً من عارف خبير. يعرف جيداً الرجال المعارف المنسوبين إليها. وإن يكن عاجزاً عن تقدير ريادتها. نظراً لتصوّره القاصر عن تاريخيّة النهضة في جبل عامل عموماً. وخصوصاً عن دور جزين بالذات. ذلك الذي راجعناه ونقدناه فيما مهّدنا به للفصل الثالث.

ثم إن تلك الخطوة عينها تبدو لنا أيضاً، وربما أجلى، إذ نعقد مُقارنة بين عبارة السيد الأمين نفسها، وعبارة خاطب بها أمير صيدا الصليبي أندرو الثاني الهنغاري ابن أُخته، عندما رأى منه العزم على الصعود إلى جزين وتأديب أهلها. إذ قال: «هؤلاء رُعاة، وبلادهم وعر»[٤]. التي تُلخّص لنا أيضاً الانطباع السائد عنها وعن أهلها قبل نهوضها. وهي ترجع إلى السنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٦ م. أي بعد أن كانت القرية قد أنجبت رائد الروّاد إسماعيل العودي (ت: ٥٨٠ هـ/

---

١. «خطط جبل عامل»/ ٢٦٣.

٢. «مُعجم أسماء المُدُن والقرى اللبنانية» ط. بيروت ١٩٩٢ م/ ٤٩.

٣. «خطط جبل عامل»/ ٢٦٤.

٤. سبط إبن الجوزي: «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» ط. حيدر آباد ١٣٧٠ هـ: ٨/ ٥٨٥.

١١٨٤ م) . لكن هذه الملاحظة لا تُغيِّر شيئاً من الانطباع الذي وصفه الأمير الهنغاري ببراعة . إذ لا شك أن إنجاب القرية لأول فقيه عاملي ، على أهميّته ، لا يمكن أن يكون موضع تقدير صائب آن وقوعه أو بُعيده . بالإضافة إلى أنه إذ ذاك كان أصغر وأقلّ شأناً من أن يُغيّر الانطباع الراسخ عنها .

فأنت تلمس من هاتين المُقارنتين ، كأقرب ما يكون إلى لمس اليد ، أن ليس في تاريخ جزين ما يومئ إلى ما ستؤول إليه في مستقبل الأيام من انبعاث عجيب . إنداح في الزمان والمكان ، مثلما تنداح مُويجات الماء على سطح راكد ، من مركز سقط فيه ثقل . وحقاً كانت جزين ذلك المركز .

(٢)

ونحن إذ ننظر في ماضي جزين ناهضةً ، علينا أن نتذكّر أنها ممّا لم يضربه الاحتلال الصليبي . ولقد وصفنا فيما فات سياسة المُحتلّين وفعلها في الناس . وكيف جعلت منهم أشبه ما يكون بعبيد أرض . يُصرّفهم ما لكها الفعلي في منافعه كيف يشاء . وغني عن البيان ، أن قوماً على هذه الحال ومثلها لا يُعقل أن يكونوا بُناة نهضة . ويستحيل أن يصرفوا قسطاً من نشاطهم إلى شؤون الفكر أو الأدب وما إلى ذلك . فمن هنا نرى بوضوح مابعده وضوح ، أن الحريّة التي تمتّعت بها جزين دون ما خلاها من بُلدان وقُرى جبل عامل الجغرافي ، كانت مُقدّمة وشرطاً لِما آل إليه أمرها بعد حين . ويُفسّر لنا ، وإن جُزئياً ، لماذا انبعثت هي دون سواها . لتكون الفاتحة والعنوان والطليعة .

ثم إننا نرى أنه كان لجزين شأن خاص ، بمعنى من المعاني ، قبل انبعاثها ، بالقياس إلى باقي جبل عامل . عرفنا ذلك من أن الفقيه الشيعي الأكبر في المنطقة الشاميّة في زمانه ، أبو القاسم بن الحسين بن العَود الأسدي الحلبي (٥١٨-٦٧٧ هـ / ١١٨٥-١٢٧٨ م) ، الذي عرفناه من قبل شيخاً للرائد ابن أبي الغيث البخاري ، اختارها على سواها ليقضي فيها ما بقي له من عمر . وهو الذي ضاقت عليه الأرض بما رحُبت . بعد المحنة القاسية التي نزلت به في وطنه حلب [٥] . وهو

٥ . «ذيل مرآة الزمان» : ٣ / ٤٣٤ . الذهبي ، محمد بن أحمد : «العبر في خبر من غبر» تحقيق صلاح المنجد ط . الكويت ١٩٦٠ م : ٥ / ٣٢٥ .

اختيار قد يكون له أي سبب، ممّا يدخل في حوافز الناس، ويُوجّه أعمالهم. ومع ذلك فلا بُدّ من أنه يُضمر مغزى. ذلك أننا لا يمكن أن نتجاهل، أن جزين بعد أن أنجبت أول فقيه عاملي، قد غدت ذات منزلة خاصّة وصيت مازها عن سواها من البلدان العامليّة.

هكذا توالت على جزين حظوظها السعيدة. فنزول ابن العَود فيها، وهو مَن عرفنا مكانته العلميّة، كان له أثره المعنوي الحميد الطيّب ولا ريب، انضاف إلى مالها من رصيد. لكن كان له أيضاً أثره العملي. فلقد عرفنا من السيرة التي علّقناها لابن أبي الغيث آنفاً، أنه درج عليه في منزله الجديد. إذن، فهذه هي المرّة الأُولى التي نرى فيها درساً وتدريساً في جبل عامل. ونُذكّر بأن المرّة الثانية كانت في قرية المنارة على يد طومان بن أحمد المناري. ثم ثلّث عليهما ابن أبي الغيث البخاري في مجدل سلِم. وهي أوسع الثلاث وأكثرها طموحاً. لكنها قُمعت بقسوة. كما بيّنا في السيرة التي وضعناها له آنفاً. فكأن المقادير كانت تنسج لجزين دوراً، من شرطه أن ليس لها فيه قرين ولا مُنازع.

لا يفوتنا أن نُسجّل هنا احتمال أن لا يكون ابن أبي الغيث التلميذ الوحيد لابن العَود بعد نزوله جزين. وغريب حقاً أن يتصوّر امرؤ أن جبل عامل، في هذه المرحلة من تاريخه، التي من أبرز عناوينها التحفزّ البالغ لتوكيد ذاتيّته الثقافيّة المأزومة، لا يستفيد من وجود أبرز فقهاء الشام فيه إلا بتلميذ وحيد. يُعزّز هذا الاحتمال بقوّة أننا، ونحن نتأمّل في معالم هذه المرحلة الغامضة من تاريخه الثقافي، لا نتعامل بمعلومات مُنظّمة، أو بتاريخ مُتتبّع مُباشر. وإنما مع حظوظ. إن أقبلت سقُينا دون أن نرتوي. وإن أدبرت بقينا وأسئلتنا الحائرة. ولقد لاحظنا في ماوضعناه من سيرة لابن أبي الغيث، أن المعلومة التي تقول إنه درس على ابن العَود أخذناها عن الصفدي. وهذا عرفها عن طريق علاقته الشخصيّة المباشرة بصاحبه. ولولا ذلك، لَما كان لنا أدنى فرصة لمعرفتها والبناء عليها. فهذا أُنموذج للحظ إذ يُقبل في هذا البحث العسِر. ممّا يُبيح لنا أن نملأ الفراغ باحتمالات نُسجّلها بوصفها هذا. اعتماداً على المُعطيات المُتوافرة.

إذا صحّ هذا الإحتمال، وهو قوي كما نرى، فنحن إذن أمام مُنعطَف رئيس في تاريخ جزين الخاص. وتالياً في التاريخ الثقافي لجبل عامل كلّه. جعل منها ثم منه مركزاً لعمل إعدادي أساسي. يمكننا أن نعتبره من مُقدمات وإرهاصات ما آل إليه أمرها بعد حين. ممّا سندّخر له مابقي من البحث.

(٣)

كل ذلك كان كلاماً في المقدّمات والمُهيّئات والرواهص التي جعلت من جزين أرضاً صالحة للانبعاث وإنبات النهضة. ممّا لم يكن لها أن تنبعث من دونه. ولكن، أيضاً، ممّا لم يكن له أن يؤتي أكُله ما لم يأتِ مَن يرفعه عن هذا المستوى. أعني مستوى المبادرات الفرديّة. التي تنتهي مع صاحبها، مهما يكن شكل النهاية وسببه. فيجعل منها ظاهرة مُستمرّة متُجدّدة، تولّد عناصرها باستمرار. وتتداعى آثارها من نُخبة واسعة أُحسن إعدادها، تتولّى التسامي بالهُويّة الثقافيّة الجامعة لشعبها. عمودياً بالتأمّل في عناصر هذه الثقافة. وأُفقياً بنشرها بصورة أفضل بين أهلها. لتصل إلى مُستوى البُنى والصيَّغ والسلوكيّات المحمودة والمعمول بها. وتلك غاية ما تطمح له أي ثقافة. وكان الشهيد ابن مكّي هو ذلك الآتي. كما أشرنا إلى ذلك غير مرّة. وبيّنا ظرفه ووعاءه السياسي والاجتماعي في السيرة التي علّقناها له آنفاً. ومن نافل القول، أنه هو نفسه ثمرة من ثمرات ما رأينا فيه مُقدّمات ومُهيّئات ورواهص.

لكن المُشكلة أننا نملك تصوّراً لخلفيّة صورة جزين الناهضة الرائدة، هي التي جهدنا في بيانها أعلاه، أفضل من الصورة نفسها. فالحقيقة أننا لانعرف الكثير عمّا كان يدور في جنباتها، في تلك الأيام ذات الأثر. تحت قيادة الشهيد وبتوجيهه. وإن كنّا نملك ما يُسوّغ لنا القول إجمالاً، إنه كان عملاً تعبوياً إعدادياً في الآن نفسه. سندنا في هذا التوصيف، ما عرفناه من الجو النفسي العام للشيعة في الشام في ذلك الآوان. الذي نما تحت وطأة النكبات المتوالية، التي بدأت بالغزو الصليبي. ممّا نفترض أن القارئ على خبُر به. ثم نص التوقيع الذي اقتبسنا موضع الحاجة منه في خواتيم الفصل السابق. من حيث أنه بيّن لنا ما كتمته التواريخ. من حركة شيعيّة عارمة ذات أهداف سياسيّة. قادها الفقهاء الجُدُد من أبناء مدرسة جزين. وسنزيد هذه النقطة جلاءً بعد قليل. وإنما نعود إلى نص التوقيع، بعد أن وقفنا عليه الوقفة المناسبة في الفصل السابق، لأن فيما وصفه أمارة على ما قلناه من جوّ تعبوي. عملت عليه المدرسة إبّان انطلاقها. ونحن هنا نحاول أن نقرأ ما حدث بطريقة ارتجاعيّة. وذلك أمر مقبول عند الضرورة.

الأمارة الوحيدة الباقية، بين يدي الباحث اليوم، على حجم وعُمق العمل الذي كان يؤدّيه الشهيد آنذاك لقضيّة شعبه، تكمن في مَن نعرفهم من تلاميذه. في عديدهم أولاً. ثم في المواطن الأصليّة التي جاؤوا منها. سواء أكانوا من جبل عامل أم من خارجه. ولكلٍّ من الأمرين دلالته.

والعديد أمارة كميّة. تتعلّق بحجم حركة الدراسة والتدريس التي نشأت في جزين من حول الشهيد. أمّا جذبها لطلاّب من أماكن قريبة وبعيدة، فهو أمارة فريدة على الموقع والصيت الواسع الذي إكتسبته القرية بسرعة مُدهشة. بحيث جذبت إليها الطلاّب من مُختلف الأنحاء. وهو فرع وثمرة لصيت الشهيد نفسه. وقد قلنا فيه ما عندنا في سيرته. ولكنه أيضاً، ولا ريب، ثمرة لتحفزّ جبل عامل لتجاوز أزمته المعنويّة. وأيضاً لفراغ المنطقة الشاميّة كلها من مركز علمي. وهي صاحبة التاريخ المجيد في هذا الباب.

ونتيجةً للبحث الدائب في مُختلف المظانّ، أحصيت أربعة وعشرين فقيها ممّن وُصفوا بأنهم من تلاميذ الشهيد، أو ممَّن يروي عن الشهيد. والكلمتان عموماً بمعنى. ومن المُحتَمل جداً وقوع الخطأ في التعداد. أولاً بسبب نقص الاستقراء، الذي جرى بالطريقة الوحيدة الممكنة. وهي طريقة عشوائيّة، لا يؤمَن معها فوات بعض الأسماء. وثانياً بسبب الاضطراب في أسماء عدد غير قليل منهم. فمثلاً "الحسن بن سليمان العاملي"[٦] قد يكون هو نفسه "عز الدين الحسن بن سليمان بن خالد الحلّي"[٧] أو "الحسن بن خالد الحلبي"[٨]. وأيضاً "اسماعيل الرّازاني"[٩]، وهو تلميذ أصفهاني للشهيد، قد يكون هونفسه "أبو طالب الدّاراني"[١٠]. إذا أخذنا في الاعتبار سُهولة تصحيف "الرازاني" إلى "الدّاراني" أو بالعكس. مع استعمال الاسم مرّة والكنية أُخرى.

لكن ما يُهوّن من تأثير ذلك على النتائج، أننا على شبه اليقين من أن التعداد غير وافٍ على كلّ حال. وأن العديد الحقيقي لتلاميذ الشهيد أكثر من ذلك بكثير. دليلنا على ذلك بعض ماورد في نصّ التوقيع الذي عالجناه في الفصل السابق. والذي نجد أنفسنا بحاجة للعود إليه دائماً. وما ذاك إلا لأنه كنز الفقير المُعنّى، الذي ليس عنده سواه. حيث قال: «**وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها [...] قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه [...] وبلّغوه إلى نفوس اتباعهم ووصّلوه. وعظّموا أحكامه. وقدّموا حُكّامه**» وهو نصّ صريح على انتشار واسع لـ«جماعة» في الساحل المُتمدّ بين «بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها». ومن هذه الأخيرة

٦. «تكملة أمل الآمل» / ١٤٦.
٧. «رياض العلماء»: ١ / ١٩٣.
٨. «أمل الآمل»: ٢ / ٣٢.
٩. «رياض العلماء»: ٤ / ١٥٩.
١٠. «تكملة أمل الآمل» / ١٨٧.

جبل عامل. هم، ولا ريب، خرّيجو مدرسة جزين أولئك الفقهاء الجُدُد. الذين انتشروا في المنطقة التي رسم النصّ حدودها بشكل بيّن. وتولّوا وظيفة التبليغ بين أهلها «بلّغوه». واكتسبوا بسرعة مكانة عالية بينهم «وقدّموا حكّامه». ممّا كان له أثره السياسي وغير السياسي. الذي كان الدّافع إلى إصدار التوقيع. المُهمّ الآن، أنه يصف عملاً مُوجّهاً، في منطقة واسعة، تولاّه ذوو أهليّة. انتشروا بعدد كافٍ بين «أتباعهم». ممّا يودع في ذهن القارئ فكرة عن عدد أكبر بكثير ممّن أحصيناهم عدداً من تلاميذ الشهيد. مع الأخذ بعين الاعتبار، أنه لا يُتصوّر أبداً أن يكونوا من غير تلاميذه. لخلوّ المنطقة كلها بالتأكيد من مصدر آخَر ممكن لهم. كما صار معروفاً عند القارئ. فضلاً عن أن تاريخ صدور التوقيع، يتناسب تماماً مع الوقت، الذي نتوقّع أن يكون العمل الجاري في جزين قد بدأ يؤتي ثماره.

على هذا فإننا سنعتبر أولئك الأربعة والعشرين تلميذاً بمثابة لقطة عشوائيّة. فنستنبط دلالتها. ونستخرج مغازيها ومعانيها. بأقصى ما يمكنها أن تُعطينا إياه. لأنها، كما عرفنا، الأمارة الوحيدة على ما كان يجري في جزين في تلك المرحلة المُبكّرة من تاريخ انبعاثها. ومن ثم بعثها للنهضة في جبل عامل.

علينا أن نُسجّل أولُ أن العديد بنفسه هو خطوة كبيرة وغير مسبوقة. وهذه الملاحظة ليست تحتاج في جانبيها إلى مزيد بيان، ولا تجشّم برهان. فالقارئ الذي رافقنا ونحن نتتبّع تطوّر الأحوال بجبل عامل، يعرف جيداً أنه من قبل هذا ندر أن يقترن فقيهان فيه في زمان واحد. وهؤلاء الآن أربعة وعشرون قُرناء. هم جميعاً من تلاميذ شيخ واحد. ومن أبناء مدرسة واحدة. فهذه أكثر الدلالات أهميّة ووضوحاً.

(٤)

قسمنا أولئك التلاميذ إلى سبع مجموعات. بالنظر إلى ما عندنا من معلومات عن مواطنهم الأصليّة.

في المجموعة الأُولى مَن لم نُفلح، بعد استفراغ الوسع، في القطع برأي عن أوطانهم. وهم ثلاثة :

- " والد أبي طالب الدّاراني " [١١] .
- " أحمد بن النجّار " [١٢] .
- " محمد بن مُجاهد " [١٣] .

ومن المُحتمل أنهم جميعاً عامليون. نظراً لمواقعهم في سلاسل الإجازات المُشار إليها في المصادر المذكورة. ويوصف الأخير منهم بأنه «الرّاوي عنه [أي عن شيخه الشهيد] كتاب الدروس بالخصوص»[١٤] .

في المجموعة الثانية العامليون، بالمعنى الجغرافي للكلمة، وهم الأكثر عدداً. تعدادهم أحد عشر، هم :

- " عز الدين، حسن بن أيوب. الشهير بابن نجم الدين الأطراوي " [١٥] ويقول عبد الله أفندي هنا : «أطراء قرية من قُرى جبل عامل. سُئل الشهيد فيها مسائل وأجاب عنها. وعندنا من ذلك نُسخة». لكن السيد الأمين يُلاحظ صادقاً أن ليس في جبل عامل قرية بهذا الاسم [١٦] . إذن، فلعلّها كانت في زمن الشهيد ثم خربت. وليس مثل هذا في الجبل بالأمر النادر.
- " حسن بن محمد بن مكّي الجزيني " [١٧] .
- " عز الدين، حسن بن ناصر بن إبراهيم بن حداد العاملي " [١٨] .
- " عز الدين، أبو عبد الله، الحسين بن علي العاملي " [١٩] .

---

١١ . «تكملة أمل الامل» / ١٨٧ .
١٢ . «رياض العلماء» : ٥ / ٢٣٤ .
١٣ . نفسه : ٢ / ٤٥١ و «تكملة أمل الآمل» / ٢٣٠ .
١٤ . المصدر الأخير / نفسه .
١٥ . «رياض العلماء» : ١ / ١٦٢ .
١٦ . «أعيان الشيعة» : ٥ / ٢٤ .
١٧ . «أمل الآمل» : ١ / ٦٧ .
١٨ . «رياض العلماء» : ١ / ٣٢٢ .
١٩ . نفسه : ٣ / ٣٧٤ .

• "زين الدين، أبو الحسن، علي بن بشارة الشقراوي الحنّاط"[٢٠]. و "الشقراوي" نسبة إلى بلدة شقرا المعروفة.

• "ضياء الدين، علي بن محمد بن مكّي الجزيني"[٢١].

• "شمس الدين، محمد بن الضحّاك"[٢٢]. والمجلسي ينقل هنا نصاً عن مجموعة محمد بن علي الجباعي الشهيرة. يصفه هذا بـ«الشيخ الإمام العالم الفقيه الأديب» وبأن «اشتغاله على شيخه ابن مكّي إلى حين مقتله. وكان يُعظّمه جداً ويُسرّ إليه».

• "شمس الدين، محمد بن عبد العالي"[٢٣]. يصفه عبد الله أفندي بأنه «أستاذ ابن العشرة وتلميذ ابن مكّي».

• "رضي الدين، أبو طالب، محمد بن محمد بن مكّي الجزيني"[٢٤].

• "شمس الدين، محمد بن نجدة"[٢٥]. وفي «تكملة أمل الآمل» "شمس الدين، محمد ابن عبد العالي بن نجدة"[٢٦]. وعند المجلسي "شمس الدين، محمد بن عبد العلي بن نجدة"[٢٧]. والكل واحد فيما نحسب. وفي «الذريعة» نبذة من إجازة الشهيد له. صدرت سنة ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨[٢٨].

في المجموعة الثالثة اثنان من كرك نوح أو الكرك، هما:

• «السيد حسن بن أيوب بن نجم الدين الأعرج الحسيني"[٢٩]. يصفه هنا بأنه «من أعاظم الفقهاء. ومن تلامذة الشهيد الأول». والظن المُتاخم لليقين أنه كركي. لِما سنعرفه في الفصل

---

٢٠. نفسه.
٢١. «أمل الآمل» ١/ ١٣٤.
٢٢. «بحار الأنوار»: ١٠٧/ ٢٠٦.
٢٣. «رياض العلماء»: ١/ ٢٦٥.
٢٤. «أمل الآمل»: ١/ ١٧٩.
٢٥. «رياض العلماء»: ١/ ٢٦٤.
٢٦. ٣٤٨.
٢٧. «بحار الأنوار»: ١٠٧/ ٢٠٩.
٢٨. ١/ ٢٤٧.
٢٩. «رياض العلماء»: ٢/ ٦٥.

المُخصّص للكرك، فيما يأتي أن بني الأعرج أُسرة كركيّة. ظلّت تُنجب فقهاء بارزين قروناً، من بعد جدّهم المؤسّس هذا.

• "جمال الدين، حسن بن عشرة"[٣٠]. يصفه الحر العاملي هنا بقوله: «عالم فاضل جليل. من تلاميذ الشهيد». وسيرته في مختلف المصادر مُضطربة جداً. وسنقف عنده الوقفة المناسبة في الفصل المخصص للكرك.

في المجموعة الرابعة كسرواني واحد. نسبة إلى كسروان من جبل لبنان. هو:

• "جمال الدين، أحمد بن إبراهيم بن الحسين الكرواني"[٣١]. والنسبة الكرواني لا معنى لها. وهي تصحيف واضح، كما لاحظ السيد الأمين أيضاً. مُقترحاً تصحيحها إلى «الكوثراني». وهو بعيد جداً. والأقرب الكسرواني دون ريب.

في المجموعة الخامسة حلبيّان، هما:

• "أحمد بن القاسم بن زُهرة الحلبي"[٣٢]. يصفه الحر العاملي بانه «عالم فاضل جليل. يروي عن الشهيد».

• "الحسن بن سليمان بن خالد الحلبي"[٣٣]. قال فيه الحر العاملي هنا: «عالم فاضل فقيه. يروي عن الشهيد».

في المجموعة السادسة ثلاثة عراقيين، هم:

• "عز الدين، الحسن بن سليمان بن محمد بن خالد الحلّي"[٣٤]. قال فيه عبد الله أفندي: «من أجلّة تلامذة شيخنا الشهيد قُدّس سرّه. وهو مُحدّث جليل وفقيه نبيل». وقد سجلنا فيما فات احتمال أن يكون هو نفسه الحسن بن سليمان بن خالد الحلبي. ومع ذلك فقد آثرنا إفراده الآن بالذكر. تبعاً لكاتبي السيرة الخبيرين الحر العاملي وعبد الله أفندي.

---

٣٠. «أمل الآمل»: ١/ ٦٧.
٣١. «أعيان الشيعة»: ٢/ ٤٨٢.
٣٢. «أمل الآمل»: ٢/ ٢١.
٣٣. نفسه: ٢/ ٦٦.
٣٤. «رياض العلماء» ١/ ١٩٣.

• "زين الدين، أبو الحسن، علي بن الخازن الحائري" [٣٥]. و«الحائري» نسبة إلى الحائر الحسيني. أي مقام الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء. وصفه القمّي هنا بأنه «عالم فاضل كامل. أُستاذ الشيخ أحمد بن فهد الحلّي، وتلميذ الشهيد».

• "المقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيّوري الحلّي" [٣٦] وهو من أخلص تلاميذ الشهيد له. رافقه منذ قدومه من الحلّة حتى مقتله أي زهاء العشرين سنة.

في المجموعة السابعة إيرانيّان، هما:

• "صفي بن محمد بن علي بن الحسن الجرجاني" [٣٧]. شخَص إلى جزين وأقام بها سنتين على الأقل. هما ٧٨٤ و٧٨٥ هـ/ ١٣٨٢ و٨٣ م يدرس على الشهيد.

• "إسماعيل الرازاني" [٣٨]. و رازان قرية من قُرى أصفهان وأيضاً محلّة في بروجرد[٣٩]، مدينة إيرانيّة. فهو على الحالين إيراني بقدر ما تدلّ نسبته.

فأنت ترى من هذا الاستقراء، لمن نعرفهم من تلاميذ الشهيد والمُتحلّقين حوله والآخذين عنه، أن العامليين منهم يتتمون إلى مختلف بلدان وقُرى جبل عامل. أمّا غيرهم فإنهم جاؤوا من مختلف الأقطار التي كان يعمرها الشيعة الإماميّة في ذلك الأوان، عدا الهند. فهذه إمارة في غاية الوضوح والتبيين على أن جزين قد انتقلت خلال عقدين من الزمان تقريباً، من قرية لا شأن لها، إلى مركز علمي. يجذب الطامحين إليه من مختلف البلدان والأقطار. وهذا إنجاز خارق يعزّ نظيره.

ثم إنها إمارة أيضاً على أن جبل عامل قد خطا الخطوة التي طال انتظارها. بعد أن طاولها أكثر من مرّة. ها هو قد بنى لنفسه وضعاً أكاديميّاً مُستقلاً. استقطب الطلاب من مختلف الأنحاء. ما إن أصبح هؤلاء مؤهّلين، حتى انتشروا في سوح العمل الفعلي. يحملون فكراً جديداً. كان له أثره البالغ والسريع بين الناس. والشاهد على ذلك كلّه قرأناه في تعريفنا بفكر الشهيد. وخصوصا في تأسيسه لِما عُرف فيما بعد باسم «ولاية الفقيه» وقرأناه أيضاً في التوقيع السلطوي

---

٣٥. «الفوائد الرضويّة»/ ٢٩٠.
٣٦. «رياض العلماء» ٥/ ٢١٦.
٣٧. «تكملة أمل الآمل»/ ٢٤٤.
٣٨. «رياض العلماء»: ٤/ ١٥٩.
٣٩. «معجم البلدان»: ٣/ ١٣.

الذي غادرناه قبل قليل. وهذه بدورها أمارة على عُمق التحفزّ الذي كانت المنطقة تُكنّه في أعماقها. ممّا بذلنا الوسع فيما فات في بيانه وشرح أسبابه. ونُلخّصها الآن، ابتغاء التذكير، بأنها كلّها ترجع إلى البلاء الصليبي. ثم إلى تداعياته القريبة والبعيدة، المباشرة وغير المباشرة. ويا ليتنا نملك معرفة أوفى بتلاميذ الشهيد، عديداً وأسماءً، إذن لجاءت النتائج التي خلُصنا إليها، عن دور جزين في افتتاح نهضة جبل عامل، أمتن سنداً وأقوى دلالةً. ثم ياليتنا نملك معلومات عمّا كان يجري تداوله فيها من أفكار وكُتب، لتجيء النتائج أكثر وضوحاً وأشدّ إقناعاً.

(٥)

بهذه الطريقة التي تبدو في غاية البساطة، افتتحت جزين على يد ابنها الشهيد ابن مكّي، ما أصبح فيما بعد نهضة شاملة. لكن قوة ما وصفناه تكمن في أنه كان استجابة صادقة للأزمة التي رافقت جبل عامل منذ بدء تكوينه بشرياً. ثم اتخذت معاني جديدة، بالغة العنف والأذى، باجتياح كسروان، وما تلاه وترتّب عليه من تبدّلات سكانيّة في الجبل ثم في الساحل.

سيكون علينا منذ الآن أن نتتبّع انتشار ظاهرة جزين في جبل عامل الجغرافي وفي خارجه. أي فيما يشمل جبل عامل الثقافي. وذلك بدراسة المراكز التي انبعثت فيه مركزاً مركزاً. بادئين بقرية عيناثا.

٢- عيناثا

(١)

عيناثا أوعيناتا، والأول هو الأكثر جرياناً على الألسن قديماً وحديثاً، قرية في أعالي جبل عامل جنوباً بغرب. غير بعيد عن الحدود الدوليّة الفاصلة بين لبنان و الأرض المحتلّة. ويبدو من اسمها الآرامي أنها من المراكز السكنيّة القديمة في الجبل. وهناك غير قرية في لبنان تحمل الاسم نفسه. ولا ذكر لهذه في مختلف المصادر البلدانيّة. ودلالة ذلك مثل ما لاحظناه على جزين من قبل. وهذا واضح.

والاسم يعني: عيون الماء [٤٠]. فكأنه كلمة «عين» جُمعت بألف وتاء. وفي جبل لبنان قرية تحمل اسم «عينات». وكلمة «عين» بمعنى العين النابعة ذائع في أسماء القرى اللبنانيّة. والمناسبة في غنى عن البيان.

يُقدّم لنا السيد الأمين ملاحظتين مُجملتين جداً عن القرية. يُكرّر في الأُولى منهما ما كان قد وصف به جزين من قبل بأنها «منبع علماء جبل عامل». ويقول في الثانية: «كانت مقرّ أُسرة خاتون المعروفة» [٤١]. والملاحظتان، على إجمالهما البالغ، صحيحتان. و سيكون علينا فيما يأتي أن نُبينهما.

(٢)

وأول ما يخطر لنا، ونحن نُقلّب النظر في التأريخ لانبعاث عيناثا مركزاً علمياً، أن نبحث عن صلة مابينها وبين جزين. لِما ثبت عندنا من ريادة الأُولى. وما لاحظناه بعد من سَيْر الثانية على خُطاها. ولن نبعد في البحث حتى نرى ما كُنا نتوقّعه واضحاً جليّاً. خبيئاً في سيرة أحد أعلامها: زين الدين، جعفر بن الحسام العيناثي.

---

٤٠. «معجم أسماء المُدن والقرى اللبنانية» / ١٢٦.

٤١. «خطط جبل عامل» / ٢٧٠.

وزين الدين جعفر، هذا، فقيه كبير. وصفه الحر العاملي بأنه «من المشايخ الأجلاّء»[٤٢]. كما وصفه المجلسي بـ«الشيخ الأعظم الأعلم»[٤٣] وهي أوصاف تُغني عن كل تعليق، إذا كنا نرمي إلى معرفة الانطباع الذي تركه الرجل في النفوس. لأنها صدرت عن علمين عارفين. لكنها لا تعني الكثير بالنسبة لِما نبتغيه الآن. لأنها أتتنا مُجملة غير مُبيِّنة. ومن ذلك أنها لم تقُل لنا، مثلاً، ماذا كان وماذا فعل لكي يفوز بتلك الأوصاف العالية. ناهيك أن الحر، الذي ترجم له بسطرين اثنين، لم يقُل لنا متى عاش، وأين درج، وعلى مَن قرأ؟ وغني عن البيان أن الحر قال ما يعرف، وسكت عمّا لا يعرف. ممّا يُشير إلى نُدرة المعلومات عن هذا الفقيه رائد بلده. لكننا رأيناه ختم الترجمة المختصرة بمعلومة أساسيّة. تصلح مفتاحاً يقودنا إلى بعض ما خفي عنّا من سيرة ابن الحسام. وذلك حيث قال: «يروي عن السيد حسن بن أيوب بن نجم الدين الحسيني عن الشهيد»[٤٤]. ومعلوم أن الرواية هي ثمرة الإجازة. وأن الإجازة هي، حيث لا يدلّ دليل على العكس، ثمرة الدراسة. فمن هنا يحقّ لنا أن نفهم أن ابن الحسام تلميذ لابن نجم الدين الحسيني. الذي عرفناه من قبل تلميذاً للشهيد في جزين. بل أحد خمسة نعرفهم، إليهم يعود الفضل في استمرار عمل الشهيد المباشر من بعد مقتله. والأربعة الباقون هم ابن نجم الدين الأطراوي. وشمس الدين محمد بن نجدة، الشهير بابن عبد العالي (ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) وشمس الدين محمد بن مجاهد. وأبو طالب الداراني. بهم تابعت جزين دورها الإحيائي. لتُنبت إلى جنبها مراكز أُخريات. تأهّل روّادها على يد هذا أو ذاك من أولئك الخمسة. وبذلك منحوا عمل شيخهم المعنى التاريخي الذي اكتسبه من بعده. وبذلك غدوا عناصر أساسيّة في تكامل صورة جبل عامل الثقافي. وسنفرغ لكلٍّ منهم في محلّه المناسب. لولاهم لربما وقف العمل عند الحدّ الذي تركه شيخهم يوم غادر جزين، ليودع سجن القلعة في دمشق. وليُخرج منه إلى الرحبة، شرقي ساحة المرجة المعروفة اليوم، حيث. أُورد مورد الهلاك. ممّا كان يمكن أن يعني أن على جبل عامل أن يعود القهقرى إلى ماكان عليه. وأن ينتظر بداية جديدة.

---

٤٢. «أمل الآمل»: ١/ ٤٥.

٤٣. «بحار الأنوار» ١١٠/ ٦٩.

٤٤. «أمل الآمل»/ نفسه.

المهم بالنسبة لنا الآن، أننا استناداً إلى تلك المعلومة صار بوسعنا أن نُقدّر تقديراً الفترة التي عاش فيها ابن الحسام. لنقول إنها في أوائل وأواسط القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد. فهو لم يُدرك الشهيد بالتأكيد. وإلا لكانت روايته عنه مباشرة. ولَما قرأ وتلقّى إجازته عن تلميذه ابن نجم الدين الحسيني.

نُرجّح أن دراسة ابن الحسام على شيخه ابن نجم الدين الحسيني كانت في جزين. ذلك أننا نعرف أن مَن أتينا على ذكرهم من تلاميذ الشهيد، أعني أولئك الخمسة الذين ثبتوا على الدرب الذي عبّده لهم، لم ينفرط نظامهم من بعده. ولم ينكفئوا عائدين إلى حيث أتوا. ولم تُرعبهم قتلة شيخهم، فقرّوا في بيوتهم قرار العاجزين. بل صمدوا على نهجه وخطّته. على الأقلّ في الجانب الإعدادي للطلاّب القادمين. الذين يبدو أنهم ظلّوا يتوافدون على القرية. وهي التي أصبحت الآن رمزاً حيّاً. ومن الجدير بالملاحظة هنا، أننا لا نعرف أحداً منهم شدّ الرحال إلى الحلّة، إلا ابن نجم الدين نفسه. الذي تُذكَر له رواية عن فخر المُحقّقين الحلّي [٤٥]. يبدو أنه تلقّاها منه أثناء زيارة عابرة للمدينة. مما يودع في النفس أنه كان بين أولئك التلاميذ الخمسة نوع من التباني أو الإتفاق، بمعنى من المعاني، على البناء على ما أسّسه شيخهم ومعلّمهم. أو لعلّ ذلك راجع إلى ظروف وأسباب لا نعرفها. المهم أنهم كانوا على ما وصفناه. ممّا كان له أبلغ الأثر على تاريخ بلدهم الثقافي، وعلى مسار الحياة العقليّة فيه. وخصوصاً على ظهور المراكز العلميّة التالية فيه.

(٣)

نعتقد أن جعفر بن الحسام، الذي فاز من بعد بأعلى درجات التنويه من مختلف كُتّاب السيرة [٤٦]، هو رائد عيناثا مركزاً علمياً. أي أنه لم يفُز بما فاز به من صنوف التنويه عبثاً وعن غير استحقاق. رغماً عن ضياع هذه الحقيقة فيما كُتب عنه. فمن قواعد فهم سير الرجال، أن الانطباعات تبقى عنهم، ينقلها الخلف عن السلف، حتى مع ضياع الوقائع التي كانت سبباً لنشوء الانطباع. وما على الباحث فيما بعد إلا أن يُنقّب عن سببها أو أسبابها. وهذه قاعدة ذهبيّة لمن يستفيد من السِّيَر ومصادرها في تركيب ما أهمله التاريخ.

---

٤٥. «بحار الأنوار»: ١٠٨ / ٢١.

٤٦. «أمل الآمل»: ١ / ٤٥. «بحار الأنوار»: ١١٠ / ٤٧. «رياض العلماء»: ١ / ١٠٢.

على أن الأخذ بتلك الحقيقة على عمومها وحدّيتها لا يعني إغفال غيره، ممّن يُذكر أنهم اتصلوا بجزين بدرجة أو بغيرها. نعرف منهم حسين العيناثي، وسليمان بن محمد العيناثي، وظهير الدين محمد بن علي بن الحسام العيناثي، ابن أخ جعفر نفسه (ح: ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨م). ومع ذلك فإننا، بعد التحقيق، نحتفظ بدرجة الريادة له دون سواه. وسنقول على التوّ لماذا.

أمّا حسين العيناثي، فمن الثابت أنه يحمل إجازة بالرواية عن الشهيد. أدرجها ابن المؤذّن الجزيني، محمد بن داود، وهو ابن عمّ للشهيد، في مشيخته. حيث قال: «... عن والدي، عن زين الحاج والمُعتمرين حسين العيناثي، عن حميّه ابن عمّي الشهيد»[٤٧]. إذن، فحسين هذا هو صهر للشهيد على ابنته. ويبدو ممّا لقّبه به ابن المؤذن «زين الحاج والمعتمرين» وهو تفخيم للقب الحاجّ، أنه لم يكن من الفقهاء. وإنما تحمّل الإذن بالرواية عن حميّه على سبيل التبرّك وما إلى ذلك.

وأمّا سليمان العيناثي، فالأفندي يصفه بقوله: «كان من علماء عصره وفقهاء دهره. يروي كتاب الدروس عن الشهيد، عن الشيخ شمس الدين محمد بن مجاهد عن الشهيد»[٤٨]. أي أنه اتصل بجزين اتصال جعفر بن الحسام بها. إذن، فمن حقه أن يُعطى قسطاً من شرف الريادة. لكن الظاهر أن الأفندي في النص الذي اقتبسناه أعلاه يُبالغ فيما وصفه به. فما من شيء يدلّ على أنه كان ذا منزلة تؤهّله لتلك الأوصاف، ولا لدور كمثل الذي نسبناه لبلديّه. ولا ذكر له في نصوص الإجازات التي بين أيدينا. ولا نعرف له تلاميذ. ولا تُذكر له مصنّفات. كما أن الحر العاملي والسيد الأمين لم يأتيا على ذكره في «أمل الآمل» و«أعيان الشيعة». ودلالة كل ذلك غير خفيّة.

بالنسبة لظهير الدين محمد، فنحن نرتاب كثيراً فيما يقوله عنه عبد الله أفندي، حيث يقول: «يروي عن المقداد السيّوري»[٤٩] (ت: ٨٢٦ هـ/ ١٤٢٢ م). وذلك استناداً إلى ما أورده أحمد بن نعمة الله بن خاتون في إجازته لعبد الله التستري[٥٠]. حيث يذكر أحد طريقين له إلى مؤلفات السيّوري. أولهما عن جدّه أحمد بن محمد بن خاتون، عن الحسين بن الحسام، عن أخيه ظهير الدين محمد، هذا، عن السيّوري. والثاني عن جدّه عن والد جدّه، عن أحمد بن الحاج علي

---

٤٧. «بحار الأنوار»: ١٠٨ / ٣٧.

٤٨. «رياض العلماء»: ٢ / ٤٥١.

٤٩. «رياض العلماء»: ٣ / ٥٥.

٥٠. «بحار الأنوار»: ١٠٩ / ٩٢.

العيناثي، عن الشيخ زين الدين التوليني، عن السيّوري. والطريق الثاني صحيح ولا ريب. أمّا الأول، فالظاهر أنه سقط منه شيخ بين ظهير الدين والسيّوري. لِما بين طبقة الاثنين من فاصل زمني. وبسقوط هذا السند سقط استنتاج عبد الله أفندي المُشار إليه. وممّا يؤيّد ذلك، أن الحر العاملي لم يذكر في الترجمة التي علّقها لظهير الدين محمد [٥١] سوى مشيخته عن أبيه عن جعفر بن الحسام... الخ.

هكذا، فإننا بعد هذه المراجعة النقديّة لِما بين أيدينا من نصوص، عن المسارات الموصلة بين عيناثا و جزين في تلك المرحلة المُبكّرة، لم يبقَ في أيدينا إلا مسار وحيد ثابت وكافٍ لتفسير إنبعاثها. هو ذلك الذي مرّ عبر العلاقة بين ابن نجم الدين الحسيني وجعفر بن الحسام. فمن هنا ذهبنا إلى أن هذا وحده رائد عيناثا مركزاً علميّاً.

يحسُن بنا أن نذكر أيضاً، على سبيل حفظ حق كل ذي حق، حسيناً بن علي بن الحسام، أخو ظهير الدين محمد. الذي يبدو أنه شقّ لنفسه طريقاً خاصاً باتجاه جزين. لا يمرّ عبر أخيه جعفر. أوصله بالواسطة إلى تلميذين من تلاميذ الشهيد. أولهما ابن نجم الدين نفسه، بواسطة تلميذه محمد العريضي. وثانيهما إلى والد أبي طالب الدّاراني بواسطة ولده، إلى الشهيد[٥٢]. على أننا لا نرى أن هذا ينتقص من ريادة العم. ذلك أن هذا المسار قد افتُتح بعد أن كانت عيناثا قد سلكت سبيلها الخاص نحو الانبعاث. يدلّ على ذلك، أن حسيناً هذا هو تلميذ أخيه ظهير الدين محمد، وهو تلميذ والدهما علي، وهذا تلميذ أخيه جعفر[٥٣]. أي أنه سار على درب مُعبّدة. ولم يخرج عنها، فيما يبدو، إلا على سبيل تنويع الطُرق وتعديد الشيوخ.

(٤)

نعرف لجعفر بن الحسام تلميذين، أحدهما أخوه علي، وهو أقلّ الاثنين شأناً، بحسب ما تعطينا إياه المصادر التي بين أيدينا. إلى درجة أننا لسنا نجد له ترجمة مُستقلة. ولكنه يُذكر عرضاً في مشيخة ابنيه محمد وحسين [٥٤]. أمّا الثاني، فهو جمال الدين، أحمد بن الحاج علي العيناثي.

---

٥١. «أمل الآمل»: ١ / ١٠٦.

٥٢. «بحار الأنوار»: ١٠٨ / ٩٢، «رياض العلماء»: ٢ / ٦٠، «تكملة أمل الآمل» / ١٨٧.

٥٣. «الذريعة»: ١ / ٥٦.

٥٤. نفسه.

ونحن، من أسف، لا نعرف الكثير عن ابن الحاج علي هذا، سوى أنه قرأ على جعفر بن الحسام وعلى زين الدين علي التوليني[٥٥]. والأول معروف عندنا. أمّا الثاني، فالمعلومات عنه مُضطربة جداً. ومن ذلك أن عبد الله أفندي يُترجم له ثلاث مرات. أُولى تحت اسم «زين الدين بن شمس الدين محمد بن علي بن حسن التوليني». وثانية تحت اسم «زين الدين التوليني»، ترجمة مُختلفة في بعض التفصيلات. وثالثة تحت اسم «زين الدين علي التوليني النحاريري»[٥٦]. تتقاطع الثانية والثالثة عند نقطة أنه تلميذ للمقداد بن عبد الله السيّوري وشيخ لجمال الدين أحمد بن الحاج علي. وتنفرد الثالثة بالقول إنه يُنسب إليه كتاب في الفقه اسمه «الكفاية». في حين يقول في الثانية: «ولم أقف له على مؤلّف». لكن المجلسي يورد في سند حديثٍ ما يؤكّد نسبة الكتاب إليه[٥٧]. وتنفرد الأُولى بقول ما يُفهم منه أنه توفي في حدود السنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٥ م. وينقل السيد الأمين عن تقي الدين الكفعمي «في بعض مجاميعه» إجازة حسن بن سليمان لبعض تلاميذه «وخصّ فيها بالإجازة فتاوى كفاية الشيخ التوليني»[٥٨]. وله «رسالة الصلاة» نسختها في الخزانة الرضويّة في مشهد. كتابتها سنة ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م. وابن سليمان هذا هو مثل أحمد بن الحاج علي، أستاذ لابن المؤذن الجزيني[٥٩]. فمن كل هذا نعرف أن التوليني كان فقيهاً ذا منزلة رفيعة. وأن كتابه «الكفاية» فاز باهتمام خاص من مُعاصريه. ونفهم من ذلك أن صاحبه كان فقيهاً أصيلاً، أي ذا منهجيّة خاصّة به. ومن أسف فإن نسخته لم تصل إلينا. وإلا لأعانتنا على بناء تصورّ ما لتطوّر التفكير الفقهي بعد الشهيد مباشرةً.

إذن، فقد أُتيح لابن الحاج علي أن يتخرّج على شيخين من أبرز شيوخ وطنه. إن لم يكونا أبرزهم على الإطلاق. وهذه بداية ممتازة لمن يُحسن الإفادة منها. وكذلك فعل. وكذلك فازت عيناثا بخلف للمؤسس جعفر بن الحسام. بنى على الأساس الذي أقامه وأحسن البناء.

لا يُذكر لابن الحاج علي أنه ترك مُصنفات. ولم نعثر على نص لإجازة صدرت له أو عنه. والأمران مُترابطان. فلو أننا عثرنا على نص إجازة مباشرة لكان من المُرجّح أن تُذكر فيها مؤلفاته،

---

٥٥. «أمل الآمل»: ١/ ٣٤، «رياض العلماء»: ١/ ٤٧، «بحار الأنوار»: ١١٠/ ٣٩.

٥٦. «رياض العلماء»: ٢/ ٣٩٣، ٢/ ٣٩٧، ٣/ ٣٨٠ على التوالي.

٥٧. «بحار الأنوار»: ٨٦/ ٢١٥.

٥٨. «أعيان الشيعة»: ٨/ ١٧٧.

٥٩. «رياض العلماء»: ١/ ٢٩٩.

إن كان له مؤلفات. لكن من المؤكد أنه تلقّى إجازة على الأقل من كل من أستاذيه. كما أنه أجاز تلاميذه. والإشارة إلى ذلك كله في سلاسل رواية هؤلاء. وسنقف عندهم وعندها على التوّ.

نعرف لابن الحاج علي أربعة تلاميذ. ثلاثة منهم عامليون هم: محمد بن محمد بن المؤذن الجزيني (ح: ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ م)[٦٠]. ومحمد بن أحمد الصهيَوني (ح: ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م)[٦١]. ومحمد بن علي بن محمد بن خاتون العيناثي[٦٢]. وهؤلاء جميعاً من معارف الفقهاء في زمانهم. لا تكاد تخلو من ذكرهم سلاسل الإجازات من بعدهم. أمّا الرابع فهو ناصر بن إبراهيم بن بيّاع الأحسائي البويهي (ت: ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩ م)[٦٣]. وهو، فيما يُقال، من أعقاب بني بويه. وكما تقول نسبته من الأحساء «هاجر إلى جبل عامل في شبابه. وسكن عيناثا حتى مات بها»[٦٤]. ولم يُتح الزمان لهذا المهاجر الطموح، ذي المنبت العريق، أن يأخذ محلّه. ذلك أنه توفي في ريعان الشباب، ودُفن في عيناثا. لكن ما وصفه به الحر العاملي، وما ذكره له من مؤلفات، تُنبئ عن مَعقدِ أمل. كما أن الأبيات القليلة التي أوردها من شعره تُنبئ عن شاعر مُجيد.

هؤلاء التلاميذ الممتازون هم الوسيلة الوحيدة التي بين أيدينا لتقويم تأثير ابن الحاج علي في بلدته في لحظة صيرورتها، بوصفها مركزاً علمياً. وبوصفه أعلى الفقهاء الشيوخ الذين يُؤخذ عنهم في زمانه. هنا لا يفوتنا أن نلاحظ، أنه عندما يشخَص ابن جزين الرائدة، أعني ابن المؤذن، إلى عيناثا ليتلقّى من شيخها. فهذا يعني أن تلك البلدة التي اقتبست بالأمس القريب من جزين أسباب انبعاثها، قد اشتدّ ساعدها، وصلُب عودها. وأخذت تُزاحم أمها على موقعها التاريخي. والدلالة نفسها، وإن تكن بأكثر حدّة وأسطع، نجدها في هجرة ناصر البويهي من الأحساء القصيّة إليها دون سواها. هوذا دليل صريح على أن عيناثا قد اكتسبت خلال جيلين مكانةً وصيتاً وطيب أُحدوثة. وفي ذلك دلالة أيضاً على أن الجسم الشيعي وسط مُوصل بتكوينه وطبعه. على ضعف وسائل الاتصال بين الناس في ذلك الأوان.

---

٦٠. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٢١.

٦١. نفسه: ١١٠/ ٥٤ و«أمل الآمل»: ١/ ١٣٧.

٦٢. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٢٤.

٦٣. «رياض العلماء»: ٥/ ٢٣٥.

٦٤. «أمل الآمل ١/ ١٨٧.

(٥)

من بين التلاميذ الأربعة، فإن التلميذ العيناثي محمد بن علي بن محمد بن خاتون، هو الذي حمل الراية في بلدته بعد شيخه ابن الحاج علي. ومضى يغذ بها السير. ليمنحها المزيد من الحضور العلمي. لكن قبل الدخول في الحديث عن ابن خاتون وأخلافه الكُثُر، فإن علينا أن نفي حقّ بني الحسام، من بعد كبيرهم المؤسّس.

والحقيقة أن تتبّع بني الحسام بعد كبيرهم، ووصف أعمالهم في هذا الميدان أو ذاك من وجوه النشاط الفكري، لأمر في غاية العُسر. ذلك بسبب اضطراب المعلومات عنهم. ممّا بان أثره في كُتُب السّير والتراجم التي حاولت التعريف بهذا أو ذاك من أعلام البيت. من ذلك أن السيد الأمين يقول في ما ترجم به لحسين بن علي بن الحسام، إنه مذكور بعدّة عناوين: عز الدين حسين بن الحسام. وعز الدين حسين بن الحسن بن يونس بن يوسف بن محمد ظهير الدين بن علي بن الحسام. «والجميع لشخص واحد»[٦٥]. مع أن بين الاثنين أربعة أجيال، ومدّة تناهز القرن. وما ذلك، فيما نحسب، إلا من أعراض خروج الأُسرة من دائرة الضوء. بعد بروز ابن الحاج علي، تلميذ جدّهم جعفر. ثم بروز شمس الدين محمد بن أحمد بن خاتون، من بعد ابن الحاج علي.

الخلاصة، إنه بعد تمحيص خليط الأسماء والألقاب تبيّن لنا أن بني الحسام لم يستمروا إلا قليلاً من بعد جيل مؤسس العائلة. من علي بن الحسام، أخي زين الدين جعفر وتلميذه. الذي لانجد له ترجمة مُستقلة. وإنما يرد ذكره عرضاً في مشيخة ابنه محمد[٦٦]. ثم ابنه هذا ظهير الدين محمد (ح: ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م) الذي ترجم له الحر ترجمة وصفه فيها بأنه «كان عالماً فقيهاً صالحاً عالماً. من المشايخ الأجلاّء»[٦٧]. وإنفرد الأفندي بالقول، إنه يروي عن المقداد السيّوري. الأمر الذي ارتبنا به فيما فات. ثم أخوه وتلميذه حسين بن علي بن الحسام. الذي يبدو أنه كان أكثر أفراد العائلة نشاطاً من بعد مؤسسها. ومع ذلك فإن الحر تجاهله في «أمل الآمل» لكن السيد

---

٦٥. «أعيان الشيعة»: ٦ / ٩٧.

٦٦. «تكملة أمل الآمل»: / ٢٤٩.

٦٧. «أمل الآمل» ١ / ١٠٦.

حسن الصدر ترجم له ترجمة على شيء من التفصيل [٦٨] . ذكر فيها شيوخه وإجازاته . وكذلك فعل الأفندي[٦٩] . بالإضافة إلى إشارة في «بحار الأنوار» إلى أنه يروي عن أخيه ظهير الدين[٧٠] . وهنا ينقطع ذكر العائلة ثلاثة أجيال . لتظهر في الجيل الرابع . بعد أن صارت تحمل اسم «الظهيري» ، نسبة إلى ظهير الدين محمد . ومنها الشيخ حسين الظهيري (ح : ١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م) . أستاذ الحر العاملي ، وأول مُجيزيه . وهو حسين بن حسن بن يونس بن يوسف بن ظهير الدين محمد[٧١] . ثم ابن أخيه حسن بن علي ، الذي توفي في إيران[٧٢] . وهو آخر مَن نعرفه من بني الحسام .

(٦)

إن حضور عيناثا في التاريخ الثقافي / الفكري لجبل عامل يعود الفضل فيه إلى عائلة هي أعرق العائلات العلميّة على الإطلاق . أولئك هم آل خاتون . وهي العائلة العلميّة الوحيدة التي احتفظت باسمها وحضورها زهاء خمسة القرون دون انقطاع . والصّلة بين الاثنين ، أعني ثبات الاسم وقوة الحضور ، واضحة .

وقد أثار اسم العائلة ، الغريب عن البيئة الثقافيّة العامليّة ، تساؤلات نجد صداها فيما كُتب عنها . وصار ميداناً للوضع والكلام الجُزاف . فمن المعلوم أن كلمة «خاتون» تنتمي إلى وسط آسية . حيث نجدها اليوم ، مثلاً ، في اللغة الفارسيّة ، بمعنى : سيّدة ، سيّدة من أصل عريق . وهناك قصص مُتداولة عن سبب حمل العائلة لهذا الاسم الفخم الغريب . ومن ذلك أن أحد أجدادها تزوّج بأميرة من البيت الأيوبي . وفي رواية المملوكي [٧٣] . والأقرب أن الاسم من صنوف آثار الاتصال الثقافي ، الذي حملته تداعيات الحروب الصليبيّة . ومن جُملتها الجماعات العسكريّة القادمة من تلك المناطق ، على موجة جهاد الغُزاة .

لكن القصة تحمل في طيّاتها ماقد يكون تاريخاً أصيلاً . إذ تقول إن أصل العائلة يرجع إلى

---

٦٨ . «تكملة أمل الآمل» / ١٨٧ .

٦٩ . «رياض العلماء» : ٢ / ٦٠ .

٧٠ . ١٠٩ / ٩٢ .

٧١ . «امل الآمل» : ١ / ٧٠ .

٧٢ . نفسه : ١ / ٦٥ .

٧٣ . «أعيان الشيعة» : ٢ / ٥٨٤ .

قرية "إمية" . وهي «قرية خراب من قُرى الشّعب وعمل تبنين . يتصل محرثها الواسع ببيوت قرية دبل» [٧٤] . «وفيها تلقّبوا بآل خاتون . [...] وكان لقبهم بيت البوريني» [٧٥] . و بورين قرية في فلسطين من أعمال نابلس . وهنا نقع على عَرَض ثانٍ من أعراض الحروب الصليبيّة . أعني الحركة السكانيّة من جنوب الشام باتجاه جبل عامل . وقد بينّا ذلك في الفصل الثالث . فعلى هذا يكون أصل العائلة من قُرى نابلس . وقد كانت عامرة بالشيعة قبل النكبة الصليبيّة [٧٦] .

مهما يكن ، فإن العائلة أو أحد أسلافها تحوّل إلى عيناثا في ظروف وتاريخ لا نعرفها . وفيها التحق ابنها شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن خاتون (ح : ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م) بالركب المُنطلق ، على شيخه أحمد بن الحاج علي . كما ذكرنا من قبل . وهو أول فقيه نعرفه من العائلة . وعلى هذا ، فإن ما قاله الخوانساري ، من أن جد العائلة «خاتون (كذا) من معاصري طبقة العلاّمة والمُحقق» [٧٧] ، يعني الحسن بن يوسف بن المُطهّر الحلّي وابنه فخر المُحقّقين (ت : ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩ م) ، هذا الكلام لا دليل عليه . إن كان يقصد به تأصيل نسب العائلة العلمي إلى ذلك الجد المزعوم . كما يبدو من فحوى كلامه . وهو الذي عوّدنا على غير هذا الكلام المُتسرّع ، المُفتقر إلى التدقيق .

والذي يظهر من إجازة شمس الدين محمد لعلي بن عبد العالي الكركي ، التي صدرت في ١١ ذي الحجّة سنة ٩٠٠ هـ/ ٢ أيلول ١٤٩٥ م ، أن أحمد بن الحاج علي هو أستاذه الوحيد [٧٨] . ذلك أن تقاليد الإجازة تقضي بأن يستعرض المُجيز في الإجازة كل شيوخه . وكلما كثُر الشيوخ ، وتعدّدت الطّرق ، وعلا السند ، كلما ارتفعت قيمة الإجازة . لكننا رأينا ابن خاتون لا يذكر إلا شيخه ذاك . ولو كان في سنده العلمي غيره لذكره بالتأكيد . فهذا دليل قوي ، بل شبه قاطع ، على ما استظهرناه . ثم هو أمارة على أن هذه الحاضرة العلميّة قد نهجت نهجاً مستقلاً . ولم تعد الرحلة إلى الحلّة من المُتمّمات التي لابد منها . لكي يكتسب الطالب الطموح ما يؤهّله إعدادياً

---

٧٤ . إبراهيم سليمان : «بلدان جبل عامل» ط . صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٦٣ / ٦٧ – ٦٨ .

٧٥ . «أعيان الشيعة» : ٢ / ٥٨٤ . ٤) «روضات الجنات» : ١ / ٧٩ .

٧٦ . للتفصيل : «التأسيس لتاريخ الشيعة» / ١٧٧ وما بعدها .

٧٧ . «روضات الجنات» : ٣ / ٤٥ .

٧٨ . «بحار الأنوار» : ١٠٨ / ٢٧ . ٢) «أمل الآمل» : ١ / ١٦١ .

ومعنوياً لموقع علمي عالٍ. كما رأينا في انبعاث جزين. ممّا نفهم منه أن شخصيّة جبل عامل العلميّة قد بدأت تتكامل. وأنها أصبحت على جانب ملحوظ من الاستقلال والنضج.

لسنا نجد ذكراً لمؤلفاتٍ لابن خاتون فيما بين أيدينا من مصادر. خصوصاً في إجازته المُفصّلة تلك. لكن هذا لا يدلّ بالضرورة على أنه لم يترك مؤلفات. بل على نقص معلوماتنا عنه. فالحر العاملي يترجم له بسطرين اثنين. فيهما ذكرُ اسمه مجزوءاً. ثم وصفه بما يستحقّه. وذكر أُستاذه ابن الحاج علي، وتلميذه علي بن عبد العالي الكركي [٧٩]. أمّا السيد الأمين فإنه لم يخصّه بعنوان في كتابه الضخم. ونظن أنه اضطرب بين أسماء المُحمّدين الكُثُر من آل خاتون، فسها عن كبيرهم. الإشارة الوحيدة إليه نجدها في إجازة ابن حفيده أحمد بن نعمة الله بن أحمد بن محمد (ت: ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٠ م) للشيخ عبد الله التستري (ت: ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م)، حيث يصفه بـ «الإمام البحر، علاّمة عصره في المعاني والبيان. وفهّامة دهره في الألفاظ والمعاني» [٨٠]. وهذا كلام صريح في أنه كان مُبرّزاً في علوم العربيّة، بحيث استحقّ هذا التنويه. ومن الجليّ أنه حين يعمد الحفيد إلى ذلك التخصيص، مع أن المُنوّه به فقيه بالدرجة الأولى، فهو دليل على صحّة ما استنتجناه. بل ربما صلُح دليلاً أيضاً على وجود مؤلفات له في تلك الموضوعات، كانت باقية إلى زمان الحفيد أي بعد ثلاثة أجيال، أو ما يزيد على نصف القرن من الزمان.

ثم إننا نعرف لمحمد بن خاتون تلميذين كبيرين. كلّ منهما ذو مكانة عالية في التاريخ الثقافي لجبل عامل. أحدهما ابنه أبو العباس، جمال الدين، أحمد (ح: ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ م). والثاني علي بن عبد العالي الكركي (ت: ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م). ولا مراء في أن هذا الأخير هو الأبعد صيتاً والأعلى مكانةً. بفضل شخصيته الفذّة، والكفاءات غير العاديّة التي تحلّى بها، فكريّة وغير فكريّة. ثم بسبب أدائه السياسي والتبليغي البالغ التأثير في إيران [٨١]. وإجازة محمد بن خاتون للكركي صدرت بتاريخ الحادي عشر من ذي الحجّة سنة ٩٠٠ هـ/ ٢ أيلول ١٤٩٥ م [٨٢]. والظاهر أن الكركي أدرك شيخه هذا في أواخر عمره. بدليل أنه تلمذ أيضاً لولده أبي العباس

---

٧٩. «بحار الأنوار» ١٠٩/ ٩١.

٨٠. أمل الآمل: ١/ ٧٠.

٨١. للتفصيل: الفصل المُخصص للكركي من كتابنا «ستة فقهاء أبطال».

٨٢. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٢٤.

أحمد. وقد ذكره بوصفه أحد شيوخه في إجازته لملك محمد[٨٣]. وما من شك في أن قراءة الكركي على شيخيه كانت في عيناثا. ممّا يدل أيضا وأيضاً على الشأو الذي بلغته آنذاك في تطوّر الحياة العقليّة لجبل عامل.

في أيام أبي العباس، أحمد بن محمد (ح: ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ م) وابنه نعمة الله علي (ح: ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٠) وحفيده أحمد بلغت عيناثا أوج حضورها بوصفها حاضرة علميّة. ولعلّ الفضل فيما بلغته يرجع إلى أن هؤلاء الفقهاء الكبار الثلاثة قد تقاطعت أعمارهم وهم في حالة نضج علمي. على الرغم من أنهم من ثلاثة أجيال. وذلك من محاسن الحظوظ وأحسن المقادير. ومن المؤكد أن نعمة الله وولده أحمد كانا أستاذين ذوي مكانة في الوقت نفسه. بدليل أن عبد الله بن حسين التستري أو الشوشتري، عندما حضر إلى عيناثا استجاز أحمد بن نعمة الله[٨٤]. ثم علّق الأب على إجازة ابنه نفسها بعدُ[٨٥]. وهذه من محاسن الإجازات وأندرها. بل الحقيقة أنني لم أرَ لها مثيلاً في كل ما اطّلعت عليه من إجازات.

في ذلك الأوان درج في عيناثا، على هذا أو ذاك من أولئك الشيوخ الثلاثة، إثنان من أعرف فقهاء الأوان في جبل عامل. سيكون لهما شأن وأي شأن في المستقبل القريب. هما علي ابن عبد العالي الكركي، الذي ذكرناه قبل قليل. وزين الدين بن علي الجُباعي، الأكثر شهرة بلقب الشهيد الثاني (ق: ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م)[٨٦]. وفيه أيضاً شخَص إليها الفقيه الإيراني الكبير عبد الله بن حسين التستري (ت: ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م). حيث درس على نعمة الله علي. وأجازه هذا إجازة ضافية. صدرت بتاريخ ١٧ محرم ٩٨٨ هـ/ ٦ آذار ١٥٨٠ م[٨٧]. وقد تركت إقامة التستري في عيناثا أثراً عميقاً في نفسه. عبّر عنه هو نفسه، إذ قال لابنه، وهو يعظه: «يابني، إنني بعد أن أمرني مشايخي رضوان الله عليهم بجبل عامل ما ارتكبت مباحاً ولا مندوباً، حتى الأكل والشرب والنوم»[٨٨]. والجدير بالذكر، أن هذا الفقيه الجليل، ذا الأثر المشهود في وطنه،

---

٨٣. نفسه: ١٠٩/ ٨١.

٨٤. «بحار الأنوار»: ١٠٩/ ٨٨ - ٩٣.

٨٥. نفسه: ١٠٩/ ٩٤ ت ٩٦.

٨٦. «أمل الآمل»: ١/ ٣٥.

٨٧. «بحار الأنوار»: ١٠٩/ ٨٨ -٩٣.

كان إذ نزل عيناثا فقيهاً معروفاً ذا مكانة. ومع ذلك فإنه وجد سبباً كافياً لقصدها على بُعد السفر وصَعبه. ولا ريب أن ماوعظ به ابنه يدلّ على أنه لم يكن آسفاً، بل في غاية الرضى عمّا فعل. ثم لا ريب أن عيناثا قد عرفت في الأوان نفسه طُلاباً آخَرين أقلّ شأناً ضاع ذكرهم. أولاً لأنهم لم يكن لهم من الشأن فيما بعد ماكان لِمَن ذكرنا، أعني أولئك الثلاثة: الكركي والجباعي والتستري. ثم لِما أشرنا إليه غير مرّة من قبل، من أننا في هذا البحث نتعامل مع حظوظ، وليس مع مصادر مُنظّمة. نذكر منهم علياً بن هلال الكركي (ت: ٩٨٣ هـ/ ١٥٧٥م) شيخ الإسلام في إيران بعد بلديّه علي بن عبد العالي [٨٩]. وبدر الدين حسن بن يونس. الذي لانعرف عنه إلا أنه تلقّى إجازة من أحمد بن محمد بن خاتون بتاريخ ٧ جمادى الثانية ٩٣٤ هـ/ أيار ١٥٢٨ [٩٠].

كل ذلك يُنبئ عن أن البلدة قد حققّت نوعاً من المركزيّة العلميّة الرئيسة في جبل عامل في عهد أولئك الثلاثة. لكن يبدو أن مكانتها إنحدرت بسرعة من بعدهم. بسبب الهجرة الكثيفة باتجاه إيران وغيرها. بيد أننا نعرف أن آل خاتون لم يُصيبوا في مهجرهم هذا مكانة خاصة. ولا نعرف أن أحداً منهم قد أُسند إليه مركز عالٍ فيها. شأن أبناء كرك نوح. وربما بسبب سيطرة هؤلاء على المراكز الرئيسيّة فيها. نعرف منهم أسد الله بن محمد مؤمن بن خاتون (ح: ١٠٦٧ هـ/ ١٦٥٦ م) مؤسّس «المكتبة الرضويّة» في مشهد. التي أصبحت اليوم من أهم مكتبات إيران. وربما أكثرها أهميّة على الإطلاق. وقد لاحظ السيد الأمين بصدق، أنه من الجيل الثالث على الأقل من المهاجرين. بدلالة أن اسم والده ذا نكهة إيرانيّة. ليست ممّا يُعهد في أسماء أبناء جبل عامل [٩١]. لكن الحر العاملي تجاهله في مَن تجاهلهم من مواطنيه. كما نعرف أيضاً محمداً بن علي بن خاتون (ح: ١٠٣٨ هـ/ ١٦٢٨ م) ابن أُخت بهاء الدين العاملي الشهير وتلميذه. ومن هنا نعرف أنه وُلد في إيران. لأن هجرة الشيخ حسين بن عبد الصمد الجباعي عندما حصلت كان كل أبنائه في مُقتبل العمر. وقد ترجم الحر لابن خاتون هذا وقال فيه: «جليل القدر. جامع لفنون العلم» [٩٢]. ومع ذلك فإن «فنون

---

٨٨. «فوائد الرضويّة» / ٢٢٧.

٨٩. «بحار الأنوار»: ١٠٩ / ٨١.

٩٠. «الذريعة»: ١ / ١٤٢.

٩١. «أعيان الشيعة»: ٣ / ٢,٨٩

العلم» لم تؤهله لمنصب يليق به في إيران. فهجرها ويمّم وجهه شطر حيدر آباد في هضبة الدكن، جنوب الهند. حيث قامت مملكة القُطب شاهيّة. فقرّبه سلطانها محمد قطب شاه (حكم: ١٠٢١–١٠٣٥ هـ/ ١٦١٢–١٦٢٦ م). وأسند إليه منصب «مُنشئ الملك». ثم بعد وفاة هذا السلطان أسند إليه خلفه عبد الله قطب شاه (حكم: ١٠٣٥–١٠٨٣ هـ/ ١٦٢٦– ١٦٧٢ م) منصب الصدارة العظمى. ومنحه لقب «مير جملة»، أي أمير الأمراء. وظلّ في هذا المنصب حتى وفاته بعد السنة ١٠٣٨ هـ/ ١٦٢٨ م. وما يزال قبره معروفاً حتى اليوم. وهو باني مسجد «تولّي مسجد» في حيدر آباد [٩٣]. وفي «المتحف البريطاني» صورة له يجدها القارئ في ملحقات الكتاب. ومنهم محمد بن أحمد بن نعمة الله بن خاتون (ح: ١٠٣١ هـ/ ١٦٢١ م). الذي لم نعرفه إلا عن طريق نسخة بخط يده لكتاب له. محفوظة في «المكتبة الرضويّة» في مشهد. وفيها تاريخ إتمام نسخها في مكّة. ومنه استفدنا أنه كان حياً في التاريخ المذكور أعلاه، وأنه هاجر إليها [٩٤]. ومحمد بن نعمة الله علي بن أحمد بن خاتون (ح: ١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩ م). الذي عرفناه عن طريق تملّك بخط يده على الكتاب نفسه بالتاريخ المذكور أعلاه لحياته. وهو من الكتُب التي أوقفها نسيبه أسد الله بن خاتون على المكتبة المذكورة[٩٥].

٩٢. «أمل الآمل»: ١/ ١٦٩.
٩٣. «أعيان الشيعة»: ١٠/ ١٠.
٩٤. نفسه: ٩/ ١١٤.
٩٥. أيضاً.

مُخطّط الحركة العلميّة في عيناثا مُمثلة برجالهامع عناية خاصّة بآل خاتون

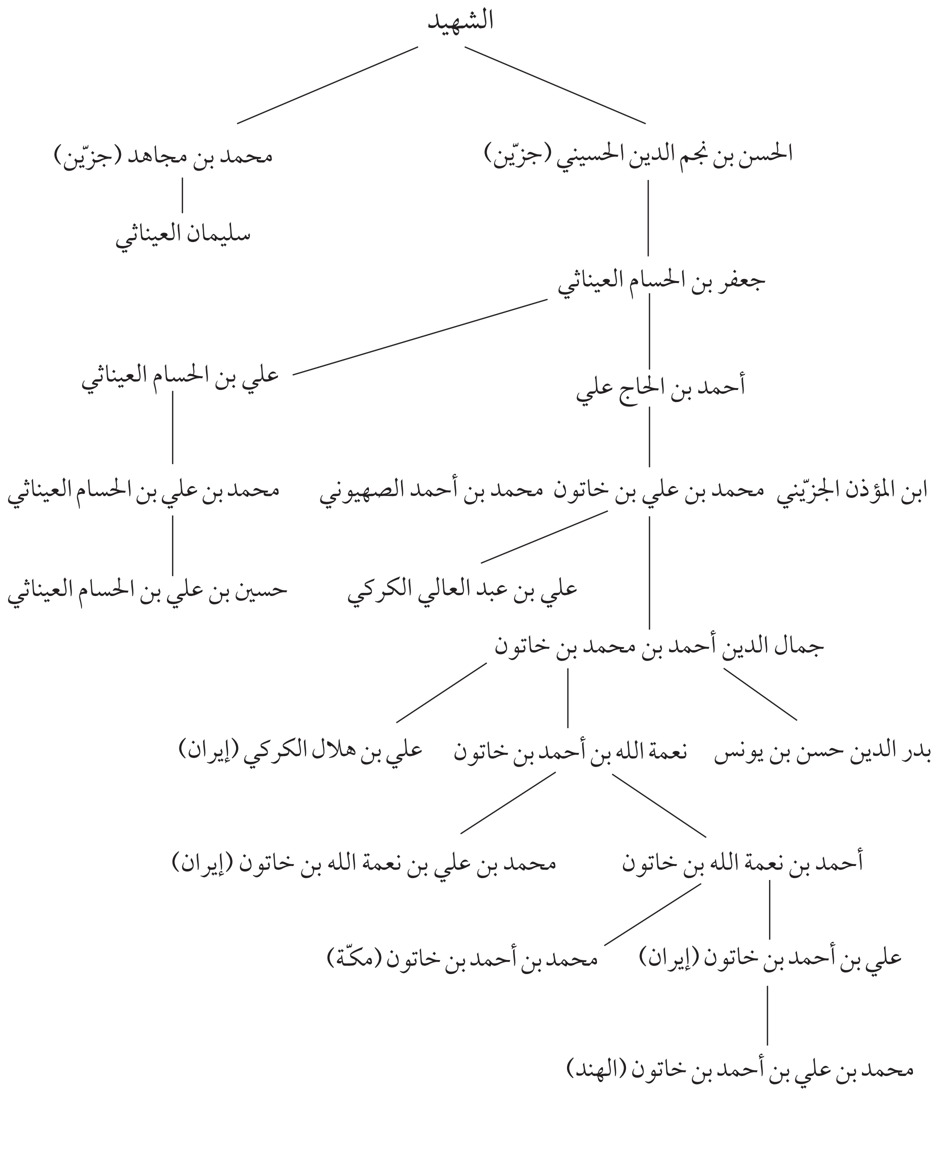

٣ - الكرك

(١)

الكرَك كما تُعرف اليوم. أو الكرَك حسب «معجم البلدان»[٩٦]، قرية في أصل جبل لبنان من شرقيّه، مُطلّة على سهل البقاع. وحسب فريحة، فإن «كرك كلمة آراميّة تعني مدينة ذات سور يُحيط بها»[٩٧] وعلى هذا فالظاهر أن أصل القرية موقع مُحصّن على الطريق الاستراتيجيّة الموصلة إلى دمشق. شأن مواقع أُخريات، مثل قلعة قصرنبا وتلال الدلهميّة، وأبرزها قلعة بعلبك.

والظاهر أن أصل القرية السكاني يرجع إلى قرية "بحوشيّة" الداثرة، التي كانت قديماً شمالي الكرك، على رأس الهضبة التي تستقر هذه أدناها. ولم يبقَ منها اليوم سوى قبور دوارس. واحتفظ الموقع باسمه التاريخي. حيث ما يزال يُعرف باسم "بحوشة". ولسنا نعرف الظروف التي أدّت إلى اندثار "بحوشيّة"، والتحوّل السكاني باتجاه الكرك، فنهوضها من موقع مُحصّن إلى قرية. وإن كنا لا نشك أن ذلك قد حصل بالتدريج، قبل أو قُبيل القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد. بشهادة أن "بحوشيّة" قد وُصفت في مصدر من القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد بأنها «شمال كرك نوح»[٩٨]. وأن أول مَن نُسب إلى الكرك من أهل العلم هو أحمد بن طارق الكركي (٥٢٧-٥٩٢ هـ/ ١١٣٢-١١٩٥م) عاش في القرن السادس. «وكان جدّه قاضي كرك نوح»[٩٩]. ولا قاضي إلا في بلد عامر. أي في الوقت الذي كانت فيه "بحوشيّة" عامرة أيضاً.

علينا أن نقف عند هذا المُحدّث والفقيه المُبكّر. بوصفه ظهيراً تاريخيّاً لِما آل إليه أمر بلده فيما بعد.

هو، حسب الذهبي، «أحمد بن طارق بن سنان، المُحدّث العالم، أبو الرضا الكركي»[١٠٠]. وصفه ابن ماكولا بـ«الشيخ الأجلّ»[١٠١]. وقال فيه ياقوت: «كان ثقة في الحديث، تاجراً كثير المال

---

٩٦. ٤ / ٤٥٢.

٩٧. «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية» / ١٤٥.

٩٨. «ذيل مرآة الزمان»: ٣ / ٦٦.

٩٩. «سير أعلام النبلاء»: ٢١ / ٢٧٠.

١٠٠. نفسه.

١٠١. ابن ماكولا، الأمير الحافظ: «الإكمال في رفع الإرتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب» ط. حيدر آباد، لات: ٢ / ٦١.

[...] وكان رافضياً»[١٠٢] . وقد علّق ابن حجر على الكلمة الأخيرة بقوله : «وياقوت متّهم بالنصب . فالشيعي عنده رافضي»[١٠٣] . وله ذكر عريض في مختلف المصادر المعنيّة بمثله . لخّصنا موضع الحاجة منها . ولا ذكر له في المصادر الشيعيّة ، سوى مانقله السيد الأمين عن المصادر المذكورة ومثلها[١٠٤] .

نذكر أيضاً ، في سياق هذا الظهير التاريخي للكرك ، الأمير الفقيه نجم الدين ، محمد بن المُوفّق بن الزهر . الذي توفي في ١٧ رجب ٦٧٢ هـ / ١٢٧١ م «بقرية بحوشيّة . ودفُن بها عند أهله»[١٠٥] . وأخاه الأمير سيف الدين عيسى الذي كان من «أعيان أُمراء الجبليّة . ووالده الأمير ناصر كان خصيصاً بالملك الصالح عماد الدين [...] توفي يعني سيف الدين ببعلبك ليلة الأحد في الخامس من رجب [سنة ٦٧٢] وحُمل إلى قرية بحوشيّة ، من قرى البقاع البعلبكي ، وهي شمال كرك نوح ، فدفُن بها عند أهله»[١٠٦] . والملك المذكور هو الصالح عماد الدين إسماعيل الأيوبي ، صاحب دمشق (حكم : ٦٣٤ هـ / ١٢٣٢ م) . كما أن اليونيني يذكر عرضاً «الفقيه شمس الدين محمد الأنصاري المُقيم ببحوشيّة»[١٠٧] . وذلك بمناسبة ما كتبه إليه هذا عن وفاة صاحبه أبو القاسم بن الحسين بن العَود الحلبي في جزين سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م . الذي عرفناه من قبل شيخاً لإبراهيم بن الحسام . كما ذكرناه في القسم المُخصّص لجزين .

ممّا لاشك فيه عندنا أن هذا المُناخ غير المُتوقّع في قرية بحوشيّة الدّاثرة هو جزء من كل . أي أنه ليس وافياً بمن كان فيه من فقهاء في ذلك الأوان . كما أنه يصف ضمناً وضعاً لم يكن محصوراً بها وحدها . بل له علاقة بجوارها .

أما الأول ، فلأن ذينك الفقيهين لم يُذكرا في سياق قَصْد الاستيفاء والبيان التام . كما أنهما لم يُذكرا لمثل ما نقصد إليه الآن . يعني لبيان الظهير التاريخي لدور الكرك العلمي .

---

١٠٢ . «معجم البلدان» : ٤ / ٤٥٢ .

١٠٣ . ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن يحيى : «لسان الميزان» ، ط . بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م : ١/ ١٨٨ .

١٠٤ . «أعيان الشيعة» : ٢ / ٦١٨ .

١٠٥ . «ذيل مرآة الزمان» : ٣ / ٨١ .

١٠٦ . نفسه : ٣/ ٦٦ .

١٠٧ . أيضاً : ٣/ ٤٣٥ .

وأمّا الثاني، فلأنهما كانا، ولا بدّ، جزءاً من ظاهرة أعمّ. لا شك عندنا أنها كانت تتصل بكسروان المجاورة، وبما كانت عليه قبل نكبة عام ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م. من ذلك ما ذكرناه آنفاً عن شيوخ بني العَود، شيوخ كسروان، الذين ما كان لنا أن نعرف عنهم، حتى ذلك القدر الضئيل، لولا الإشارة إليهم في رسالة ابن تيميّة للسلطان المملوكي. التي أثبتها تلميذه ابن عبد الهادي في كتابه عن شيخه[١٠٨]. واصفاً ماكان لهم من مكانة عالية بين قومهم. وماكان لهم من مؤلفات مُنتشرة بينهم. ومن ذلك أيضاً وأيضاً، آل الأحواضي الفقهاء الشيعة في قرية حراجل، من قرى كسروان، التي يترجم الصفدي لأحد كبارهم "مفيد الدين الأحواضي الشيعي، محمد بن جمال الدين بن أبي صالح، عبد الله بن أبي أُسامة". واصفاً إياه بـ«رأس الشيعة وقدوتهم. مات بقرية حراجل، من جبل الجُرد، وقد قارب الأربعين سنة. سنة أربع وسبعين وستماية. كان كثير الفنون، لكنه أحكم المنطق والفلسفة»[١٠٩]. كما يذكر اليونيني والده، أعني والد مفيد الدين نفسه، فيصفه بـ«شيخ الشيعة والمُقتدى به عندهم، والمُشار إليه في مذهبهم. وسيأتي ذكره إن شاء الله»[١١٠]. لكن هذا الذكر جاء، من أسف، في القسم غير المطبوع من الكتاب. وممّا تجدر بنا ملاحظته هنا، وصف الصفدي مفيد الدين بأنه «أحكم المنطق والفلسفة». أعني بالذات ما تضمنته من إشارة لا تخفى على العارف، إلى أن الرجل قد تجاوز ما هو ضروري بوصفه فقيهاً و«رأس الشيعة وقدوتهم». وتلك إشارة إلى أن المُناخ الثقافي لكسروان الشيعيّة قبل النكبة، كان على درجة عالية من الخصوبة والتنوّع. لكن ذلك ضاع إثر ذلك العمل الأخرق الهمجي. الذي حاول ابن تيميّة أن يُقدّمه للناس بوصفه فتحاً.

هكذا، فنحن إذ نحاول أن نُقيم انبعاث الكرك على تاريخ مُناسب، نقع لأول مرة، فيما درسناه من الحواضر العلميّة، على حاضرة ذات تاريخ مُتصل بما آلت إليه. وهذ امتياز جيّد. لأنه يمنح المبادرات الفرديّة، التي سنفرغ لها بعد قليل، بُعداً يتصل بالحوافز ذات الصفة الجمْعيّة التقليديّة الراسخة. أي أننا نقع لأول مرّة على حالة لها تقاليدها الخاصة بها في ميدان الإنتاج الفكري. ومع ذلك فإننا لا يمكن أن نلاحظها إلا في سيَر الخواص من الأفراد. لأنهم وحدهم

---

١٠٨. «العقود الدريّة» / ١٨٢ - ٨٤.

١٠٩. «الوافي بالوفيات»: ٢ / ٣٠٩.

١١٠. «ذيل مرآة الزمان»: ٣ / ١٥١.

الذين يفوزون بالاهتمام. فيبقى ذكرهم لمن بعدهم. وقد يبقى من ذكرهم بعض ما أهمله التاريخ. أو عجز عن رؤيته بحكم قصوره المنهجي. كما قد يبقى شيء ممّا دمّره مَن يزعمون أنهم صانعوه. وما تجاوزناه قبل قليل مثال جيّد على الحالين.

الآن يمكننا أن نقول، إن حوافز الكرك، دون غيرها من «البقاع البعلبكي»، وهي الأبعد جغرافياً عن مركز النهضة، بحيث انتظمت فيها، وانتظمت أيضاً في جبل عامل الثقافي، هذه الحوافز هي ثمرة موقعها على الطريق المسلوك الموصل بين سهل البقاع وبين كسروان. وكم لهذا من أمثال. وهو من الحظوظ. فالبلدان كالبشر لها حظوظها أيضاً. قد تكون الجغرافيا من أسبابها. وتلك أسباب قد لاتبدو قبل أن تتفاعل وتُنتج كبير أمر. وإلا فمن كان يخطر له ما سيكون لهذه القرية الصغيرة من الشأن العظيم والأثر الجليل. الذي انداح إلى البعيد القصيّ. ممّا سيجد القارئ وصفه بقدر الحاجة فيما يأتي.

(٢)

كل ذلك يعود إلى ما يمكن أن نُسميه التاريخ المُنفصل. أعني ذلك الذي لم تتصل حلقاته بغايته ومُنتهاه، اتصالاً يسمح للمؤرخ بأن يصفه. بل كان، فيما يبدو لنا ظهيراً مناسباً، له صفة المُهيِّئ والمُمهّد للتاريخ المُتصل. أي ذلك الذي اتصلت حلقاته بعضها ببعض، في تطوّر حثيث مُتصاعد. بحيث بلغ غاية تُذكَر.

وأول مَن نقع عليه في هذا الطور حسين بن محمد بن هلال الكركي (ح: ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦ م). وهو تلميذ للشهيد ابن مكّي. التقى به في الحلّة وقرأ عليه وأجازه بتاريخ ١٢ شعبان ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦ م. وما يزال نص الإجازة محفوظاً بتمامه[١١١]. ومعلوم ممّا فات أن هذا التاريخ يقع في السنة نفسها التي نظن أن الشهيد غادر فيها الحلّة عائداً إلى وطنه. ومن المألوف أن الشيخ يمنح تلميذه إجازته قبل أن يفترقا. وهذا كل ما نعرفه عن ابن هلال. فنحن لانجد له ذكراً بعد هذا أبداً. لا في بلده، ولا في غيره. ولم يترجم له الحر. فإمّا أن الرجل لم يكن له من الحضور ما استحق أن يُسجّل له. وإمّا أنه لم يعُد إلى بلده لسبب أو غيره.

---

١١١. «رياض العلماء»: ٣/ ٣٧٤.

ومع ذلك فلن يفوتنا التقاط مغزى هجرة ابن هلال إلى الحلّة. ذلك أنه في عمله هذا كان أميناً على تاريخ بلده. وأميناً أيضاً في التعبير تعبيراً فصيحاً عن استمرار هذا التاريخ. ثم لن يفوتنا أن نُلاحظ أيضاً أن التعبير قد بدأ موازياً للتوق العاملي العام. الذي كان مركزه الأساسي جزين وتقاطع معها منذ أول الطريق. إذ التقى ابن هلال بالشهيد، وقرأ عليه في الحلّة كما عرفنا. وسنرى أن التقاطع الذي بدأ على مستوى فردي، قد انتهى إلى الاندماج الكامل. حيث التحقت الكرك المُعرقة بالرّكب المنطلق في جزين بقيادة الشهيد. ثم بقيادة تلاميذه من بعده.

(٣)

نُشير بأول الطورين إلى شمس الدين، محمد بن عبد العالي الكركي (ت: ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م). ذكره المجلسي، نقلاً عن مجموعة محمد بن علي الجُباعي مؤرخاً لوفاته. وعنه أخذنا التاريخ الذي أثبتناه عقيب اسمه [١١٢]. ثم أعاد ذكره في الصفحة التالية حيث قال: «ومن خطه [يعني الجُباعي] من مُكاتبة الشيخ السعيد الشهيد شمس الدين محمد بن مكي تهنئة لتلميذه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد العالي الكركي». ثم أورد ثمانية أبيات نفهم منها أن سبب التهنئة هي عودة تلميذه من الحج. وفي ختامها اعتذار ووعد بالزيارة. ممّا يوحي بمودّة عميقة بين الاثنين. هي، ولا ريب، ثمرة علاقة مديدة. على نحو ما يكون بين شيخ وتلميذه. والأبيات ركيكة السبك. لاتُداني ما نعرفه من شعر الشهيد. ولذلك فقد صدفنا عن نصها، واكتفينا بمعناها. وذلك كل ما نعرفه عن ابن عبد العالي. لكن الظاهر أنه قضى عمره بعد الطلب في بلده. ولم تُذكر له مُصنّفات أو تلاميذ. وما ندري لماذا أعرض عن ذكره كُتّاب السيرة المُتتبّعون. مع أن المصدر الذي أخذنا عنه وأخذ عنه المجلسي كان بمتناولهم.

مهما يكن، فهاهي الكرك قد اتصلت بجزين، على نحو ما رأينا من اتصال عيناثا بها. بل قبلُ. وهو اتصال نعرف أنه بدأ كمثل ما يكون اتصال الوليد بأُمه. أي على نحو الاعتماد الكامل، وبالقدر اللازم، قبل أن يصلب عوده، ويملك زمام أمره، ويستقلّ بنفسه. وإذ ذاك قد ينشأ مركز علمي جديد. ومن شرط نشأته، أن يُقيّض له الرجل المناسب، مكانةً علميّةً وقوّة حضور. ويبدو

---

١١٢. «بحار الأنوار»: ١٠٧ / ٢٨.

أن هذين الشرطين لم يجتمعا بابن عبد العالي. ولذلك فقد بقي الدور محفوظاً لَمَن يستحقّه ويقوم بحقّه. وكان ابن العشرة الكسرواني رجل الكرك القادم، والفاتح لِما استُقبل من أمرها. مثلما كان جعفر بن الحسام بالنسبة لـ "عيناثا". ومن الواضح أن ابن العشرة يُمثّل ثاني الطورين.

(٤)

واستناداً إلى تلميذه النجيب، محمد بن علي الجُباعي، فإن اسمه الكامل هو "عز الدين، الحسن بن يوسف، الشهير بابن العشرة الكسرواني" [١١٣]. نقول هذا لِما هناك من اضطراب كبير بين مختلف المصادر حول الاسم. حتى الاسم. ناهيك بما هو أخفى من تفصيلات شؤونه. ولذلك فقد سارعنا إلى أخذه عمّن عرفه حاقّ المعرفة. فضلاً عن أننا نعرف عن التلميذ الجُباعي دقته وعنايته البالغة بالتأريخ. و«مجموعة الجُباعي» من المصادر الأساسيّة التي أخذ عنها المجلسي في «بحار الأنوار»، خصوصاً في كتاب الإجازات. وهي مصدرنا الأساس في هذا الكتاب. ومن الاضطراب المُشار إليه، أن كلاً من الحر العاملي وعبد الله أفندي والسيد الأمين قد ترجم له مرتين مرتين. كل مرة تحت اسم مختلف. وهذا بالنظرة الصادقة ورم لا شحم. فضلاً عن أن المعلومات التي أوردوها عنه أقلّ بكثير ممّا يستحقّه.

من الثابت أن ابن العشرة قرأ على تلميذين من تلاميذ الشهيد. هما الحسن بن أيوب، الشهير بابن نجم الدين الأعرج. الذي عرفناه من قبل شيخاً لجعفر بن الحسام. وعلى محمد بن عبد العلي بن نجدة. وكذلك على محمد العريضي، تلميذ ابن الأعرج. وهؤلاء هم شيوخه الأساسيّون في جبل عامل. والأرجح أن قراءته على ابن نجدة والعريضي كانت في جزين. أمّا قراءته على ابن الأعرج فربما كانت في الكرك.

لكن محمداً بن أحمد الصِهيوني، تلميذ ابن العشرة، يقول في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي: «وأجزتُ له أن يروي عني عن الشيخ عز الدين بن العشرة عن شيخه نظام الدين علي بن أحمد النيلي» [١١٤]. وهذا، خصوصاً قوله: «شيخه» نص من عارف على أنه، أعني ابن العشرة، قرأ على النيلي. ونحن نعرف أن هذا كان من أعرف فقهاء الحلّة في زمانه. توفي عام ٨٠٠ هـ/

١١٣. «بحار الأنوار»: ١٠٧ / ٢٠٩.

١١٤. «بحار الأنوار»: ١٠٨ / ١٨.

١٣٩٧ م. كان قد عرف الشهيد زمان إقامته في الحلّة. وربما قرأ عليه [١١٥]. والمفهوم من هذا، أن ابن العشرة شخَص إلى الحلّة وقرأ على النيلي. لكن عنصراً بهذه المثابة من الأهميّة في تاريخ الرجل الشخصي لا يمكن أن يفوت تلميذه المتتبّع الدقيق الجُباعي. والجمع بين الخبرين يكون بالقول، إنه شخَص بالفعل إلى الحلّة حيث التقى بـ «شيخه» النيلي. لكن بعد أن كان قد استوفى حظّه من فقهاء بلده. وغدا فقيهاً ناضجاً. فاستجاز النيلي على سبيل وصل سنده عبر فقهاء الحلّة. وهذا أمر مألوف جداً. ولذلك لم يذكره الجُباعي في أستذة شيخه. لأنه لم يقرأ عليه. والصهيوني قال فيه «شيخه» على نحو شيخ الإجازة، وليس شيخ القراءة. وذلك أيضاً أمر مألوف.

ثم إن حسناً بن زين الدين الجُباعي، يذكر في إجازته المعروفة بالكبيرة، طريقاً فيه ابن العشرة عن أبي طالب محمد بن الشهيد [١١٦]. يبدو أن ليس وراءه إلا رغبة المُجاز له في وصل سنده إلى الشهيد عن طريق ابنه. إذن، فهي الأُخرى لا تعني أنه من تلاميذ أبي طالب.

(٥)

علينا أن نقف في هذا السياق وقفة خاصة عند العلاقة بين ابن العشرة وأحمد بن فهد الحلّي (٧٥٦-٨٤١ هـ/ ١٣٥٥-١٤٣٨م). لِما في هذه العلاقة من مغزى أو أكثر. خصوصاً لِما فيها من دلالة على الهُويّة الفكريّة للكرك. وهي غرضنا من دراسة رجالها.

وابن فهد فقيه ذو لون خاص. وصفه نور الله التستري (ت: ١٠١٩ هـ/ ١٦١٠ م) بأنه «كان صوفياً مُرتاضاً وصاحب حال وذوق»[١١٧]. ونجد تأييداً لهذا الوصف لدى الشيخ يوسف البحراني (ت: ١١٨٦ هـ/ ١٧٦٢ م)[١١٨] وأيضاً لدى الخوانساري (ت: ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م)[١١٩]. وعلى كل حال، فإن من مؤلفاته ما يُغنينا عن تحليل انطباعات الآخرين. مثل «التحصين وصفات

١١٥. نفسه ١١٠/ ١٥٧.

١١٦. أيضاً: ١٠٩/ ٥٠.

١١٧. «مجالس المؤمنين» ط. إيران (طبعة حجرية) لات.: ١/ ٥٧٩.

١١٨. «لؤلؤة البحرين»/ ١٦٨.

١١٩. «روضات الجنات»: ١/ ٧١.

العارفين» و «أسرار الصلاة» وغيرها. وكلها طافحة بنفس عرفاني لا لَبس فيه. والحقيقة أننا لم نلجأ إلى تسجيل انطباعات مَن ذكرناهم عن الرجل، إلا تجنّباً للدخول في دراسة مباشرة له. تخرج بنا عن عمود البحث.

غادر ابن فهد وطنه الحلّة، في رحلة طويلة انتهت في الكرك حيث أقام لعدّة سنوات. وهنا التقى بابن العشرة، لقاءً هيأته المقادير. دون أن يسعى إليه أيّ منهما. والظاهر أن سبب الرحلة يتصل بالظروف السياسيّة التى اضطرب فيها وطنه الحلّة.

يصف المؤرخ العراقي عباس العزّاوي ما نزل بوطن ابن فهد إبان حياته. فالحلّة كانت تحت حكم أحفاد تيمور. وما إن توفي هذا سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م، حتى عاد السلطان قرا يوسف التركماني إلى العراق ليحكمه من جديد. ثم من بعده ابنه محمد شاه. وابنه الآخر الميرزا أسبند. وجرت على الحلّة خطوب وخطوب، انتهت باستيلاء أسبند عليها سنة ٨٣٦ هـ/ ١٤٣٢م[١٢٠]. وذلك هو على الأرجح سبب مغادرة ابن فهد لها تلك المدة الطويلة.

بقي لنا من آثار ذلك اللقاء نص إجازة صدرت عن ابن فهد لابن العشرة. أثبت نصها الكامل الشيخ يوسف البحراني [١٢١] في كتابه «أنيس المسافر». واقتبس مطلعها في كتابه الآخر «لؤلؤة البحرين» [١٢٢]. وحسناً فعل. ذلك أنه كان من خطأ الناسخ، فيما يبدو، أن ورد اسم المُجاز في «الكشكول» هكذا: "أبو الحسن علي بن يوسف، المعروف بابن العشرة" - ممّا حمل السيد الأمين على استغراب نسبة الإجازة "للابن وهي للأب" [١٢٣]. وهو استغراب في محلّه على تقدير صحة هذه القراءة. لكن الإشكال كلّه يرتفع إذ نقرأ الجزء الذي اقتبسه البحراني من نص الإجازة في «لؤلؤة البحرين». حيث يقول: «... وقد وقفت على إجازة الشيخ أحمد بن فهد الحلّي للشيخ حسن المذكور قال فيها بعد الخطبة [...] أبو علي الحسن بن يوسف، المعروف بابن العشرة». أي أن خطأ الناسخ في «الكشكول» قد بادل بين الاسم والكنية. ممّا أوقع السيد الأمين

---

١٢٠. عباس العزّاوي: «تاريخ العراق بين احتلالين» ط. بغداد ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٥م: ٣/ ٩٥ وما بعدها.

١٢١. يوسف البحراني: «أنيس المسافر» (مطبوع تحت اسم «الكشكول») ط. بيروت ١٩٨٦ م: ٢/ ١٨٨ - ٩٣.

١٢٢. ١٦٩/.

١٢٣. «أعيان الشيعة»: ٥/ ٢١٧.

فيما أشرنا إليه . وكاد يوقعنا في خطأ كبير . يزجّ عنصراً في تاريخ الحركة العلميّة في الكرك ليس منها في الحقيقة . هو والد ابن العشرة المزعوم . مع كل ما يترتّب على ذلك من نتائج غريبة . لا تنسجم مع المجرى العام الذي نتتبّعه . لكن البحث والتدقيق أنجى بحثنا من هذا المُنزلق الخطير . نقول هذا على سبيل الاعتبار .

والإجازة، من بعد، وقد صدرت بتاريخ ١٢ شعبان ٨٤٠ هـ/ ٧ شباط ١٤٣٧ م نموذج ساطع عن منهج كاتبها وهُويته الفكريّة . ومن ذلك أنها تضمّنت حديثين لن تجدهما في مجموع يلتزم بالمنهج النقدي المُعتمد عند أهل الفقه . هما الحديث الأول والثالث . ثم أنها لا تُشير إلى أن المُجاز له قد قرأ على المُجيز . مع أن الأول قد أقام في الكرك مدّة غير قصيرة . وأنه كان فقيهاً ذائع الصيت . الأمر الذي كان دائماً إغراءً للطامحين بوصل نسبهم العلمي بأمثاله . لكنه قَبِل منه الإجازة . ونحن نشمّ من مُجمل هذه الملابسات رائحة موقف . يتصل، ولا ريب، بالفاصل المنهجي الكبير بين هُوية الكرك الفكرية، التي لم تُنجب إلا فقهاء صلبين . عملوا على بناء مجتمع على صورة أفكارهم، كما سنرى . وبين ابن فهد وأمثاله، من ذوي النزعة النخبويّة، التي تتجه بطبعها إلى أفراد ممتازين .

على هذا فإن بإمكاننا القول بكامل الثقة، إن اللقاء بين ابن فهد وابن العشرة كان غير ذي أثر يُذكَر على الاثنين . أي مثلما يكون بين رجلين من أمثالهما، قد صلُب عودهما واستقرّت أفكارهما . وصارا عصيّين على التكيّف مع مناهج جديدة، من غير ما ارتاحا إليه نهائيّاً .

على أن هذه الملاحظة لا تعني أن مقام ابن فهد في الكرك لا ينطوي على أي مغزى . خصوصاً بالنسبة لِما نرصده الآن، أعني نشأة الحركة العلميّة فيها . ونحن قد رجّحنا أعلاه أنه قد غادر وطنه بسبب ما نزل بوضعه السياسي من إضطراب . ولكن، لماذا التجأ إلى الكرك ليس غير؟ السؤال يتناول سلوكاً شخصيّاً . ممّا يجعله مفتوحاً على أكثر من احتمال . منها ما ليس يحمل بالضرورة دلالة خاصة تتصل بما نعالجه . وعلى كل حال، فلنؤجّل الإجابة على السؤال . لأننا سنرى مثيلاً لموضوعه فيما سيأتي . وكثيراً ما يكمن المغزى في التراكم .

(٦)

في ختام هذا الاستعراض لأساتذة ابن العشرة وشيوخه، ومَن ساهم بدرجة أو غيرها في بنائه فكرياً، أو يُحتمَل أنه فعل، لابد لنا من أن نُشير إلى أن ابن جمهور الأحسائي، محمداً بن علي، يذكر طريقاً إلى الشهيد يمرّ عبر ابن العشرة مباشرة [١٢٤]. ممّا يُفهم منه أن هذا التقى بالشهيد وقرأ عليه. وقد أغرب غير واحد في البناء على هذا. منهم الحر العاملي، حيث قال في ابن العشرة: «يروي عن الشهيد» [١٢٥]. لكن عبد الله أفندي ارتاب بهذا السند [١٢٦]. ونحن نشاركه ارتيابه وأكثر. إذ لا دليل عليه إطلاقاً. بل الثابت أنه لم يُدركه في سنّ الطلب. لِما هناك من فرق في الطبقة بين الاثنين. بل الثابت فقط أنه قرأ على تلميذيه ابن الأعرج وابن نجدة، كما سلف منّا القول.

(٧)

لا تُذكَر لابن العشرة مُصنفات. والقارئ الذي رافقنا في هذا البحث بقلب واعٍ، يتذكّر أننا لاحظنا مثل هذه المُلاحظة على غيره، ممن شأنهم التصنيف. والحقيقة أنني أشعر أن السؤال يغدو أثقل كلما أوغلنا في البحث. فلماذا لا نجد لهؤلاء الكبار المؤسسين مُصنّفات أو، على الأقل، ذكراً لمُصنفات.

التفسير الأقرب، فيما يبدو لنا، أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. ذلك أن من سمات فترات التأسيس، أن أهميّة ما يحدث فيها إجمالاً لا تبدو لمن يُزامنها. وإنما فقط لمن يستوعب نتائجها فيما بعد. ومن المعلوم أن الحافز الباعث على التسجيل هو فرع ونتيجة عن إدراك الأهميّة. الأمر الذي لا يحدث عادةً إلا بعد نضج الحدث أو الدور. إذ ذاك تكون معلومات جمّة عن الأحداث وأبطالها قد ضاعت. ومن هنا نلاحظ ضآلة المعلومات عن الأبطال المؤسسين للمراكز العلميّة في جبل عامل، بما فيه، وربما بالدرجة الأُولى، ذكر أو نفس مُصنّفاتهم. في مقابل ثراء المعلومات عنهم في فترة الازدهار والاستقرار. لا نستثني من هذه القاعدة سوى الشهيد. وهو المؤسس الأكبر كما نعرف. الذي تتوفّر المعلومات عنه بشكل مقبول. وعن مُصنفاته خصوصاً بشكل ممتاز. وما

١٢٤. «غوالي اللآلي»، ط. قم (مكتبة بصيرت) لات: ١/ ١٨.
١٢٥. «أمل الآمل»: ٢/ ٦٧.
١٢٦. «رياض العلماء»: ٦/ ٢٦٤.

ذاك إلا بسبب اتساع حركته وأصدائها . وانتشار مؤلفاته واستمرار الاهتمام بها لقرون من بعده . فضلاً عن عديد تلاميذه . ومنهم بارزون ذوو أثر يُذكَر . كل ذلك تركه أكبر من أن يضيع . بل نقول : إن دراسته من بعده بقرون قد أظهرت جوانب من حركته وفكره ، منحتها المزيد والمزيد من الأهميّة والاهتمام . وما هذا البحث برمّته إلا تصديق لذلك .

مهما يكن ، فإننا بعد أن فاتنا أثر ابن العشرة الفكري المباشر ، بسبب عوزنا لنصّه ، لم يبقَ في أيدينا إلا الخوض في أثره غير المباشر . أعني عبر تلاميذه . وهو في الحقيقة بحث في دوره التأسيسي في بلدته الكرك . ولا يذهبن بقارئ الظن إلى أن هذا الترتيب بين البحثين ، يعني بالضرورة تراتباً من حيث الأهميّة ، وما هو أولى منّا بالبحث . بل هو ترتيب وظيفي بحت . يتناول أولهما الهُويّة الفكريّة للرجل . في حين يتناول الثاني دوره الإعدادي في هذه الحركة المُتنامية ، الآخذ بعضها برقاب بعض . وسنرى ما سيكون للكرك ، بوصفها أحد نتائج هذه الحركة ، من دور جليل . الأمر الذي يمنح عمله التأسيسي فيها أهميّة لا تُنكَر ، وينظمه في أبطالها .

(٨)

نعرف لابن العشرة ستة تلاميذ . مامنهم كركي إلا واحد . أمّا الباقون ، فثلاثة منهم عامليّون ، بالمعنى الجغرافي للكلمة . وعراقي واحد . والسادس لا نعرف عنه ما يكفي للقطع بشأن منبته . ونُرجّح أنه عاملي . وسنُعرّف بهؤلاء بعد قليل .

ونحن إذ نتخذ من هذا الإحصاء مؤشّراً ومقياساً ، يمكننا أن نقول بناءً عليه ، إن هذا الشيخ لم يحظ بين أبناء بلدته بالمحل المناسب . وأن صيته كان في غيرها أكبر وأوقع . كما يمكننا القول ، إن الكرك قد تردّدت طويلاً قبل أن تستجيب الاستجابة المناسبة ، وتنبعث الانبعاث الذي سيكون وصفه محل اهتمامنا فيما يأتي . مع أننا عرفنا أن لها من تاريخها القريب والبعيد ما يدعو المتأمل إلى توقّع استجابة أكبر وأسرع . خصوصاً وأننا عرفنا ممّا فات ، أن أول مَن شخَص إلى الحلّة منها ، كان من تلاميذ الشهيد والخصيصين به . وهو ، وإن لم يترك أثراً يُذكَر ، إلا أن مُجرّد مبادرته بنفسها لا تخلو من دليل على تحفّز مجتمعه . لكن التحفّز شيء . وأن يندمج موضوعه في سلوك الناس وخططهم لحياتهم مُستوى آخر . ونحن لم نُسارع إلى الإدلاء بهذه الملاحظة ، مع أنها بمعنى من المعاني مُصادرة على الوقائع الموضوعيّة ، إلا رغبةً منّا بأن يكون القارئ بمستوى الكاتب وحدسه .

ذلك الحدس الذي ينشأ من ملاحظة الجزئيّات. حيث لابد للكاتب أن يسبق القارئ، مهما يكن حصيفاً، ولو بخطوة.

والتلميذ الكركي هو محمد بن الإسكاف الكركي. يأتي عبد الله أفندي على ذكره عرَضاً، أثناء الترجمة التي عقدها لشيخه ابن العشرة. حيث قال: «ويروي عنه الشيخ محمد بن الإسكاف الكركي» [١٢٧]. ولم يُذكَر على الإطلاق في كافة المصادر المماثلة. خصوصاً في أوسعها «أعيان الشيعة»، وفي «أمل الآمل». ودلالة ذلك غير خفيّة.

امّا الخمسة الباقون فهم جميعاً من معارف الفقهاء. ومنهم ذوو الذكر العريض والأثر. ولعلّ أعرفهم هو محمد بن علي الجُباعي (ت: ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م)، صاحب الاسم الشهير. الذي عُرف خصوصاً بكتاب لم يصل إلينا. لكن يكثُر النقل والاقتباس عنه، تحت اسم «مجموع الجُباعي». وفيه معلومات دقيقة عن فقهاء عصره في جبل عامل. وقد أكثر المجلسي النقل والاقتباس عنه في مجلّد الإجازات من «بحار الأنوار». وكثير ممّا أخذناه عنه منقول أصلاً عن هذا المجموع [١٢٨]. ومنه أخذنا أدقّ المعلومات عن ابن العشرة. وقد خصّه بترجمة على شيء من الإسهاب. اقتبسها المجلسي بتمامها. قال في ختامها: «وقرأتُ عليه كثيراً» [١٢٩]. والجُباعي هو مؤسّس الحركة العلميّة في جُباع. وجدّ عائلة من معارف الفقهاء. آخرهم وأوسعهم شُهرةً بهاء الدين العاملي الشهير (ت: ١٠٣٠ هـ/ ١٦٢١ م) وسنقف عنده الوقفة المناسبة في القسم المُخصّص لجُباع.

والثاني هو محمد بن محمد بن المؤذّن الجزيني (ح: ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ م). الذي عرفناه من قبل تلميذاً لأحمد بن الحاج علي في عيناثا. قال في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي، الصادرة بتاريخ ١١ محرّم الحرام ٨٨٤: «وبطريق آخَر عن شيخي الأفضل عز الدين الحسن بن العشرة، عن شيخه شمس الدين بن عبد العالي» [١٣٠]. يعني محمداً بن نجدة، تلميذ الشهيد. فقوله: «شيخي الأفضل» نص صريح من عارف على ماكان لابن العشرة من مكانة عالية وأثر حميد في تلاميذه.

---

١٢٧. «رياض العلماء»: ١/ ٢٦٤.
١٢٨. راجع، مثلاً: «بحار الأنوار»: ١٠٧/ ١٤ – ٣١.
١٢٩. نفسه: ١٠٧/ ٢٠٩.
١٣٠. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٣٥.

والثالث محمد بن أحمد الصهيَوني (ح : ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م). وهو أيضاً من تلاميذ ابن الحاج علي. قال في إجازته للميسي أيضاً، الصادرة بتاريخ الثامن من ذي القعدة سنة ٨٧٩ : «وأجزتُ له أن يروي عني، عن الشيخ عز الدين بن العشرة»[١٣١].

والرابع محمود بن أمير الحاج. وهو فقيه لا نعرف عنه ما يُذكَر. والقليل الذي نعرفه عنه مُضطرب جداً. ترجم له الحر باختصار شديد[١٣٢]. ونفهم من نظمه لترجمته في الجزء الأول من الكتاب، أن الرجل عاملي. على أن هذه القاعدة غير دقيقة. فهو، مثلاً، ترجم لابن العشرة في الجزء الثاني. ويبدو أن كل ما في تلك الترجمة مأخوذ عن «غوالي اللآلي». ذلك أنه قال فيها عن ابن أمير الحاج : «يروي عن تلامذة الشهيد». وبالعودة إلى الطريقين الثاني والسادس، من الطرق السبعة التي أوردها ابن أبي جمهور في مقدمة كتابه[١٣٣] نفهم أن الحر يعني بـ«تلامذة الشهيد» ابن العشرة تحديداً. لأن هذا هو الوحيد الذي تُذكر لابن الحاج رواية عنه. وابن العشرة عند ابن أبي جمهور من تلامذة الشهيد، كما عرفنا ممّا سبق. وقد عبّرنا هناك عن ارتيابنا الشديد بذلك.

لكن عبد الله أفندي كان أكثر تحديداً. حيث قال إنه، أي ابن أمير الحاج، «يروي عن ابن العشرة الكركي»[١٣٤]. وعنه، فيما يبدو أخذ السيد الأمين هذه المعلومة. وأضاف إليها قوله : «وهو من مشايخ الإجازة»[١٣٥]. لكننا بعد البحث والتنقيب لم نعثر على ما يُسوّغ هذا الوصف. خصوصاً وأنه لم يُذكَر على الإطلاق في مجلّد الإجازات من «بحار الأنوار». وهو أوسع وأفضل مصدر للإجازات ورجالها.

ثم أن ابن أبي جمهور يقول إن ابن أمير الحاج من مشايخ فخر الدين، أحمد بن محمد السّبعي[١٣٦] (ح : ٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠ م). وهو فقيه أحسائي كبير. درس في النجف، وكان فيها سنة ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦ م. ثم غادرها إلى الهند وتوطّنها حتى وفاته[١٣٧]. فإذا صحّ ذلك فهو يعني أن

---

١٣١. نفسه : ١٠٨/ ٣٨ - ٣٩.

١٣٢. «أمل الآمل» : ١/ ١٨٤.

١٣٣. «غوالي اللآلي» : ١/ ١٨ - ٢٧.

١٣٤. «رياض العلماء» : ١/ ٢٦٥.

١٣٥. «أعيان الشيعة» : ١٠/ ١٠٢.

١٣٦. «غوالي اللآلي» : ١/ ١٩.

١٣٧. «روضات الجنات» : ١/ ٦٨، هاشم محمد الشخص : «أعلام هجر» ط. بيروت ١٤٠١ هـ/ ١٩٩٠م : ١/ ٢٠٦.

ابن أمير الحاج كان في النجف بتاريخ وجود السّبعي فيها . وهو تاريخ يتناسب مع الفترة التي عاش فيها . لكن لا قرينة أُخرى على صحّة هذه المعلومة . وعندما يكون ابن أبي جمهور وحده مصدراً للمعلومات ، فهو عندنا ليس بذاك .

الخلاصة ، إنه باستثناء تلمذة ابن أمير الحاج لابن العشرة ، فإنه ما من شيء من القليل الذي تذكره المصادر عنه ممّا تطمئن إليه النفس .

والخامس علي بن هلال الجزائري ، نسبةً إلى الجزائر ، التي تُعرف اليوم بـ«الأهوار» ، وعُرفت قديماً بـ«البطائح» . وقد وصف نفسه في إجازته لعلي بن عبد العالي الكركي . التي صدرت في الكرك بتاريخ منتصف شهر رمضان سنة ٩٠٩ هـ/ ١٥٠٢ م بـ«الجزائري مولداً، والعراقي محتداً وأصلاً» [١٣٨] . وهي عبارة ذات دلالة هامة بالنسبة لغرضنا من نظمه في هذه الدراسة . ذلك أنها تقول ضمناً ، إن علاقته بالبلد الذي ينتسب إليه علاقة واهية جداً : علاقته بالعراق إجمالاً علاقة بأصل ومحتد ، وعلاقته بالجزائر علاقة بمولد . وما ذاك إلا لأنه عاش عامة عمره في الكرك . فكأنه ، إذ يُهوّن من شأن علاقته بمحتده ومولده ، يريد أن يقول إنه كركي .

يقول أيضاً في الإجازة نفسها : «وأجزتُ له أن يروي عني ، عن شيخي المولى الشيخ الأعظم العالم الفاضل الكامل ، الشيخ عز الدين ، حسن بن يوسف ، الشهير بابن العشرة» . وقد عرفنا قبل قليل أن الإجازة صدرت في الكرك في منتصف شهر رمضان ٩٠٩ . ونحن نعلم ، استناداً إلى محمد بن علي الجُباعي ، في الترجمة التي علّقها لشيخه نفسه ، وأشرنا إليها قبل قليل ، أن هذا توفي سنة ٨٦٢ هـ/ ١٤٥٧ م . إذن ، فيمكننا أن نقول على سبيل الظن القوي ، إن الجزائري أقام في الكرك مدة ما بين التاريخين . أي سبع وأربعين سنة عداً . يؤيّد ذلك ، أولاً ، النعوت التي أسبغها على شيخه أعلاه . وهي نعوت لا تُقال حسب التقليد إلا في الشيخ المُربّي ، ذي الفضل العميم على تلميذه . الأمر الذي لا يحصل إلا بالصحبة المديدة . وثانياً ، إن علياً بن عبد العالي الكركي ، الذي سنصل إليه بعد قليل ، يقول في إجازته للقاضي صفي الدين عيسى : «فممن قرأتُ عليه وأخذتُ عنه ، واتصلت روايتي به ، ولازمته دهراً طويلاً وأزمنة كثيرة ، وهو أجلّ أشياخي وأشهرهم ، وشيخ الشيعة الإماميّة في زماننا غير مُنازَع ، شيخنا الشيخ الإمام [...] المُعمّر الأوحد ،

١٣٨ . «بحار الأنوار» : ١٠٨ / ٢١ .

مُلحِق الأحفاد بالأجداد [...] أبو الحسن، علي بن هلال قدّس الله نفسه الزكيّة»[١٣٩] . إذن، فالنص الأول يقول بالالتزام، إن الجزائري لازم شيخه ابن العشرة زمناً طويلاً . والثاني يقول صراحةً، إن علياً بن عبد العالي الكركي لازم شيخه الجزائري «دهراً طويلاً وأزمنة كثيرة» . ومجموع الاثنين، وما بينهما من سني النضج، خلاصة عمر الجزائري . خصوصاً أننا لانعرف له من الشيوخ إلا إثنين . هما ابن العشرة وأحمد بن فهد الحلّي . وكلاهما التقى به وتلقّى عنه في الكرك[١٤٠] . وبهذه النتيجة نكون قد تجاوزنا ما وصلنا إليه أعلاه عن مدّة إقامة الجزائري في الكرك . لنقول : إنه أتاها في مُقتبَل العمر فتيّاً . وفيها درج على ابن العشرة . وفيها غدا «شيخ الشيعة الإماميّة في زماننا غير مُنازَع» على حدّ قول تلميذه الكركي . وربما توفي فيها بعد السنة ٩٠٩ هـ/ ١٥٠٣ م وقبل السنة ٩٢٨ هـ/ ١٥٢١ م .

بالعودة إلى ابن العشرة نقول : إنه توفي في الكرك سنة ٨٦٢ هـ/ ١٤٥٧ م، كما سبق منّا القول . بعد أن وطّد لنفسه مكاناً سامياً في تاريخ بلدته، وفي تطوّر وضعها بصفتها مركزاً علميّاً . كما وطّد لنفسه مكانة مماثلة، عبر تلاميذه، في التاريخ الثقافي لجبل عامل كلّه . بل فيما هو أوسع بكثير، كما سنعرف بعد قليل . ثم من بعده تلميذه الجزائري . وهو الوحيد غير العاملي ذو الأثر المذكور في جبل عامل . وفي أيامه، وتحديداً سنة ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٢ م، قصد الأخباري محمد بن علي بن أبي جمهور الأحسائي (ح : ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١ م) الكرك . حيث استجاز شيخها ابن هلال[١٤١] . والزيارة تأصيل عن زيارة ابن فهد لها قبل سبع وثلاثين سنة . ودلالة ذلك غير خفيّة . سواء على المكانة التي ارتقت إليها الكرك، أم على صيت شيخها ابن العشرة العلمي .

(٩)

قبل أن ننصرف نحو علي بن عبد العالي الكركي، وإلى محلّه في هذا التطوّر المعقّد . علينا أن نقف عند عائلة بني الأعرج الكركيّة . وهي، مثل آل خاتون العيناثيّة، عائلة مُعرقة في تاريخ

---

١٣٩ . «بحار الأنوار» : ١٠٨ / ٧٠ .

١٤٠ . مشيخة ابن فهد للجزائري في : «بحار الأنوار» ١٠٨ / ١١٤ .

١٤١ . عبد الله الشوشتري : «مجالس المؤمنين»، ط . إيران لات : ١ / ٥٨٠ .

جبل عامل الثقافي. رافقته منذ بداية نهضته، حتى غروبها بالهجرة الواسعة إلى " إيران ". لكن بني الأعرج نجحوا في أن يبنوا لأنفسهم مكانة عالية في مهجرهم. في حين فشل آل خاتون.

وأول مَن نعرفه من رجالات العائلة، الحسن بن أيوب، الشهير بابن نجم الدين الأطراوي. وقد عرفناه من قبل أحد أبرز تلاميذ الشهيد البارزين. وأستاذاً للمؤسسين الكبيرين جعفر بن الحسام العيناثي والحسن بن يوسف بن العشرة الكسرواني.

وقد أثارت نسبته "الأطراوي" جدلاً بين كُتّاب سيرته وسِير أخلافه. ومن ذلك أن السيد الأمين قال في «أعيان الشيعة» [١٤٢] : «ولا نعلم لأي شيء هذه النسبة». لكنه في «خطط جبل عامل» ينقل عن عبد الله أفندي أن «أطراء قرية من قرى جبل عامل، سُئل الشهيد فيها مسائل وأجاب عليها. وعندنا من ذلك نُسخة» [١٤٣].

إذن، فعبد الله أفندي هو صاحب الفضل في إطلاعنا على هذا التفصيل المفيد من تاريخ العائلة، بل ومن تاريخ جبل عامل السكاني. وهو المعروف بشغفه البالغ بالتنقيب في الوثائق، وبحُسن الاستفادة منها. وبفضله عرفنا أن منبتها قرية وربما مزرعة في جبل عامل كان اسمها "أطراء" درست وضاع ذكرها. وحُفِظت في تلك النسبة الفريدة. وليس مثل هذا بالأمر النادر في التاريخ السكاني لجبل عامل.

من الآثار النادرة الباقية لابن نجم الدين الإطراوي، الكتاب الذي وضعه تلميذه علي بن علي الفقعاني (ت: ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م)، نسبةً إلى قرية "فقعيّة" في ساحل صور. وهي أيضاً قرية أو مزرعة دارسة [١٤٤]. والكتاب اسمه «مسائل اليقين» [١٤٥]. لكنه اشتهر بـ «مسائل ابن طي». وقد طُبع منذ سنوات تحت هذا الاسم، ضمن مشروع رائد، يرمي إلى تقديم صورة شاملة لتطوّر الفقه الإمامي، تحت اسم «مواردالفقه».

جمع ابن طي في كتابه هذا، بين فتاوى الشهيد وفتاوى شيخه ابن نجم الدين، في المسائل الفقهيّة الضرورية. أي التي يجب على المُكلّف أن يُلمّ بها. بالإضافة إلى فتاوى منسوبة لجعفر

---

١٤٢. ٤ / ٨٨.

١٤٣. «خطط جبل عامل» / ١٦٩ و «رياض العلماء» : ١/ ١٦٢.

١٤٤. «أعيان الشيعة» : ٨ / ٢٩٤.

١٤٥. «رياض العلماء» : ١ / ١٦٤.

ابن الحسام العيناثي. واسمه «مسائل اليقين» يدل على أنه وُضع بذهنيّة مَن يطلب أوثق الفتاوى وأقربها إلى اليقين بالصحة. والظاهر أن الكتاب لقي انتشاراً وقبولاً واسعاً بين الناس. قبل أن يتجاوزه التطوّر الدائم في هذا العلم.

علينا أن نُسجّل هنا ملاحظة في الغاية من الأهميّة. هي أن «مسائل اليقين» هو أول كتاب عاملي يكتسب مكانة عالية بين الناس، ويغدو كتاباً شعبيّاً. وهذه ملاحظة هامّة جداً ونادرة في آن معاً. تسمح لنا بأن نُلقي نظرة، وإن من منفذ صغير، على نمو العلاقة بين العمل الفكري والثقافة. وذلك جزء أساسي من عمل المثقّف العضوي. ولا شك في أن ابن طي كان في مُنتهى الذكاء والبراعة حين ألّف كتابه على ماوصفناه من منهج. بالنسبة لِما نعالجه في هذا القسم، فإن من الغني عن البيان، أن المُزاوجة بين الشهيد وابن نجم الدين في هذا الكتاب، لدليل على المكانة العالية التي كانت لهذا الأخير بين قومه.

من بعد ابن أيوب ولده «جعفر بن فخر الدين حسن بن أيوب، ابن نجم الدين جعفر الأطراوي»[١٤٦]. والسيد حسن الصدر هو الوحيد الذي عقد له ترجمة مستقلّة. نقلها السيد الأمين حرفيّاً[١٤٧]. ولم يُذكَر على الإطلاق في المصادر الأساسيّة: «أمل الآمل» و «بحار الأنوار» و «رياض العلماء». ودلالة ذلك غير خفيّة. ومن ذلك أن كل ما قاله السيد الصدر في المُترجَم له: «من علماء السادة الأجلّة، وكُبراء الدين والملّة». وهو كلام إنشائي فارغ لايعني الكثير بالنسبة للباحث. يدلّ على أن حال السيد الصدر، بالنسبة لِما في جَعبته من معلومات تستحق الذكر، ليس أفضل من حال غيره، ممن تجاهل ذكر الرجل. ومع ذلك فإن بعض ما قاله مفيد جداً على تقدير صحته. أعني بالذات النسبة "الأطراوي" في تمام اسم جعفر. ذلك أنها تدل ضمناً على أن العائلة في زمانه ما تزال في وطنها الأساسي "أطراء". وأنها لم تُحدث ما يستدعي تبديل نسبتها.

بلغت العائلة ذروة حضورها بشخص حفيد مؤسسها. أعني حسناً بن جعفر بن حسن بن الأعرج (ت: ٩٣٩ هـ/ ١٥٣٢ م). الذي ينسبه تلميذه علي بن هلال الكركي (ت: ٩٨٣ هـ/ ١٥٧٥ م) إلى منبت العائلة الأساسي "أطراء" فقال: "الأطراوي". وذلك في إجازته لملك

---

١٤٦. «تكملة أمل الآمل»/ ١١٩.

١٤٧. «أعيان الشيعة»: ٤/ ٨٨.

محمد بن سلطان الأصفهاني [١٤٨]. لكن الحر العاملي ينسبه إلى الكرك [١٤٩]. وهذا الاختلاف، وليس التناقض بالتأكيد، إشارة ضمنيّة إلى أنه هو أول مَن تحوّل إلى سكنى الكرك واتخذها وطناً. وهنا عرفه تلميذه الكركي ابن هلال وقرأ عليه. حينما كان ما يزال حديث التحوّل إليها. فنسبه إلى وطنه الأصلي "أطراء" وهذا واضح. في حين أن الحر عرف عنه وعن أبنائه وأخلافه وعن نشاطه العلمي في الكرك، فنسبه إليها. وهذا أيضاً واضح. ولذلك قلنا أن لاتناقض بين الروايتين. لاختلاف اللحاظ والزمان.

درس السيد حسن على علي بن عبد العالي الميسي في قرية "ميس الجبل". وهو شيخ إجازته الوحيد [١٥٠]. وعلى ابن خالته علي بن عبد العالي الكركي (ت: ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م) في الكرك. ومن أبرز تلاميذه علي بن هلال الكركي، الشهير بالشيخ علي المنشار، شيخ الإسلام في إيران فيما بعد، وزين الدين بن علي الجُباعي، الشهير بالشهيد الثاني (ق: ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٨ م) [١٥١]، وحسين بن عبد الصمد الجُباعي (ت: ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٦ م). وكل هؤلاء من معارف الفقهاء.

لأول مرّة منذ الشهيد الأول، نقع فيما خلّفه لنا السلف على ثبت وافٍ، فيما يبدو، بمُصنّفات أحد رموز النهضة. أعني السيد حسن نفسه. والفضل في ذلك لزين الدين بن علي الجُباعي. الذي أورد في إجازته لتلميذه حسين بن عبد الصمد الجُباعي، ثبتاً يبدو أنه قصد منه أن يكون وافياً بمصنفات شيخه. سنقتبسها عنه لِما في ذلك من فائدة. ذلك أنها تضعنا في الجو الفكري لمؤلفها. بوصفه أحد رموز النهضة وبُناتها:

- «شرح الطيّبة الجزريّة، في القراءات العشر» وهو شرح على كتاب «طيّبة النشر في القراءات العشر» لمحمد بن محمد الجزري.
- «العُمدة الجليّة في الأصول الفقهيّة» في علم أصول الفقه.

---

١٤٨. «بحار الأنوار»: ١٠٩/ ٨١.

١٤٩. «أمل الآمل»: ١/ ٥٦.

١٥٠. «أعيان الشيعة»: ٥/ ٣٥، «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»: ١٣/ ٣٦٧.

١٥١. علي بن محمد الجُباعي: «الدر المنثور من المأثور وغير المأثور»، ط. قم ١٣٩٨هـ: ٢/ ١٥٩.

- «المحجّة البيضاء والحُجّة الغرّاء» (جمع فيه بين فروع الشريعة والحديث والتفسير للآيات الفقهيّة).

- «مُقنع الطلاّب فيما يتعلّق بكلام الأعراب» (وهو كتاب حسن الترتيب ضخم. في النحو والتصريف والمعاني والبيان) [١٥٢].

وقد أدرج آغا بُزُرك الطهراني كل هاتيك الكتب في «الذريعة». لكنه، وهو المُتتبّع الدؤوب، لم يذكر أنه عثر على نسخة لها أو لأحدها [١٥٣]. ممّا يُرجّح أنها مفقودة.

كان السيد حسن الذروة التي انحدرت عنها العائلة فجأةً في وطنها. لترتقي ذروة أُخرى في مهجرها إيران. ذلك أن ولده السيد حسين كان ممن حملته الهجرة إليها. وهناك صار يحمل لقب "الأمير" ممّا يكفي للدلالة على المنزلة الرفيعة التي اكتسبها هناك. وله ذكر عريض في «عالَم آراي عباسي» لإسكندر بيك منشي [١٥٤]. المؤرّخ الرسمي للبلاط الصفوي، على عهد الشاه إسماعيل والشاه طهماسب (٩٠٧-٩٨٤ هـ/ ١٥٠١-١٥٧٦ م). وحمل أخلافه لثلاثة أجيال على الأقل لقب "ميرزا" : (ابن الأمير). وتقلّبوا في مختلف المناصب الرفيعة. وغلبت عليهم الأسماء ذات النكهة الإيرانية. وقد رسمنا مُشجّرة للعائلة يستعين بها القارئ على أن يتصوّر بنظرة واحدة حركة العائلة في المكان والزمان. يجدها في ملحق بهذا القسم.

(١٠)

نصل الآن إلى أشهر مَن أنجبته الكرك في ذلك الزمان، بل في كل الأزمان. أعني علياً بن عبد العالي الكركي (٨٧٠-٩٤٠ هـ/ ١٤٦٥-١٥٣٣ م). صاحب الدور التاريخي. الذي لا يُدانيه دور أي رجل آخَر في تاريخ إيران الحديث، والمُستمر حتى اليوم. وفيما يخص بحثنا على وجه الإجمال، فقد عرفنا ممّا فات أن صيت جبل عامل قد ذاع وانتشر في ومن إيران. وذلك بفضل الإنجازات الباهرة التي حقّقها أبناؤه هناك. والآن فإن علينا أن نُضيف، إن ابن عبد العالي كان الفاتحة والعنوان وصاحب المبادرة الأُولى للانتشار العاملي الكثيف والفاعل في ذلك البلد.

---

١٥٢. «بحار الأنوار» : ١٠٨ / ١٥١.

١٥٣. «الذريعة» : ١٣ / ٣٦٧ و ١٥ / ٣٣٥ و ٢٠ / ١٤٤ و ٢٢ / ١٢١، على التوالي.

١٥٤. «عالم آراي عباسي» (بالفارسية)، ط. طهران ١٣٣٤ هـ. ش : ١/ ١٢٣ و ٢١٤ و ٣٦٩.

بل هو علّة ذلك الصيت. لكن من حق هذا أن يُبحث تحت غير عنوان بحثنا. فلنكتفِ، إذن، بهذه الإشارة. ولنُحِل القارئ الراغب في التفصيل إلى كتابنا «الهجرة العاملية إلى إيران ...».

لكن الرجل هو، قبل أي اعتبار آخَر، ابن جبل عامل الثقافي. في مراكزه درج. وعن شيوخه تلقّى وتحمّل. وعليه، وجمعاً بين الحقّين، سنقتصر هنا على التعريف بالقسط العاملي من سيرته. بوصفه أحد رموز النهضة، تاثّراً وتأثيراً. مع إلمامة لا بد منها بما حمله إلى مهجره من فكر جديد. بوصفه ممثّلاً للهُويّة الفكريّة لوطنه. وبالتحديد لمدرسة الشهيد. هكذا نكون كأنما ننظر إلى جبل عامل من خارجه. نظرةً تضيع فيها التفصيلات التي نخوض فيها في هذا البحث. لكنها تُمتعنا برؤية شاملة، نفتقر إليها حتى الآن.

وخلافاً لِما يدور على الألسنة، فإن اسمه علي بن الحسين بن عبد العالي. وقد ذُكر أبوه في إجازتين للابن من شيخيه ابن خاتون والجزائري[١٥٥] بما يدلّ على أن الأب كان من عُرُض الناس. لكننا نفهم من سياق الكلام أن الابن كركي المنبت والأرومة. وأنه نبت في عائلة عاديّة. ربما كانت تعيش من زراعة الأرض لحساب أحد الإقطاعيين. وأنه، دون سابقة في بيته، قرّر أن يشقّ طريقه الخاص المُختلف. وليس مثل هذا بالأمر النادر في رجالات النهضة العامليّة، خصوصاً المؤسسين منهم.

والظاهر أنه اتخذ طريقه الطويل في الطلب والتحصيل على علي بن هلال الجزائري في بلدته. أي أن نزول الجزائري الكرك كان الفرصة التي سنحت له فاهتبلها حتى النهاية. ومن هنا نراه يُطنب بفضل شيخه هذا عليه. ومن ذلك ما قاله في إجازته لابن أبي جامع: «فممن قرأتُ عليه، وأخذتُ عنه. ولازمته دهراً طويلاً، وأزمنة كثيرة. وهو أجلّ أشياخي وأشهرهم. وهو شيخ الشيعة الإماميّة في زماننا غير مُنازَع. شيخنا الشيخ الإمام [...] المُعمّر الأوحد الفاضل. مُلحِق الأحفاد بالأجداد. علي بن هلال قدّس الله نفسه الزكيّة ...» ثم قال: «قرأتُ عليه المنطق والأصول والفقه. واستوعبتُ كتاب قواعد الأحكام قراءة عليه، وكثيراً من مختلف الشيعة في مسائل الشريعة. من مصنّفات شيخنا الإمام جمال الدين بن المُطهّر الحلّي. وجميع شرح تهذيب

---

١٥٥. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٢٠ و ٣١.

الوصول إلى علم الأصول، وغير ذلك»[١٥٦] . فمن هنا قلنا إنه درج على هذا الشيخ . وعلى كل حال فإن هذا النص من أثمن النصوص التي حملتها إلينا الإجازات من ذلك الزمان .

الفقرة الأُولى تُلخّص سعي ابن عبد العالي وفضل شيخه العميم عليه . هذا الرجل الذي نزل الكرك فتىً، قادماً من منطقته البائسة . وفيها درج على ابن العشرة، كما عرفنا . وفيها نضج ليغدو «شيخ الشيعة الإماميّة في زماننا غير مُنازَع» . فمن هنا نلاحظ أن الشيخ وتلميذه كلاهما قد درج وبلغ مبلغه في الكرك على شيخ أساسي وحيد : الجزائري على ابن العشرة، والكركي على الجزائري . كأنما كانا معاً في غياب مُناخ دراسي عام . مثل ذلك الذي وجدناه وسنجده في المراكز العلميّة العامليّة الأُخرى . وهذه ظاهرة غريبة . لا أذكر أنني صادفتُ لها مثيلاً .

والفقرة الثانية تقدّم وثيقة فريدة، في حدود ما نعرف، عن المنهج الدراسي الذي كان مُعتمداً، والكتب التي كانت تُدرّس، في ذلك الأوان . وسأكتفي الآن بتسجيل هذه الملاحظة الأوليّة على هذا الموضوع الدقيق . الذي لا يمكن أن يلاحظه إلا العارف الخبير بتطوّر الفقه الشيعي الإمامي وبمدارسه، وسمات كلٍ منها . على أن أفي الموضوع حقّه في القسم الذي سنعقده لتحليل الحركة التي نرصدها الآن . فأقول، إن المغزى العميق والأساسي لِما قاله الشيخ الكركي في هذا الشأن، هو السيطرة الكاملة لمدرسة الحلّة على مُجمَل الحركة الفكريّة والإعداديّة، التي كانت عالقة في جبل عامل . ولا غرو في ذلك ولا عجب . فالقارئ الذي رافق هذا البحث يعرف الآن جيداً أن الحلّة كانت المعين الأساسي والرئيس الذي اغترف منه جبل عامل . وبنى نهضته على الاتصال الدائم به . والتفصيل موكول إلى ما سيأتي .

يقول الكركي في إجازته لحسين بن محمد الأسترابادي أن له رواية عن ابن المؤذن الجزيني ومحمد بن أحمد الصهيَوني[١٥٧] . وكلاهما من تلاميذ ابن العشرة، كما عرفنا ممّا فات . ونحن نُرجّح أنه بدأ الدراسة عليهما في الكرك . فهما قد أقاما فيها بالتاكيد، حيث درسا على شيخهما ابن العشرة . ومن المألوف في تقاليد الدراسة، أن الطالب يتولّى تدريس مَن هو أدنى منه، خصوصاً في المراحل التحضيريّة . والمُلاحَظ أنه لم يذكر أنه قرأ على شيخه الجزائري شيئاً ممّا هو

---

١٥٦ . «بحار الأنوار» : ١٠٨ / ٧٠ .

١٥٧ . «بحار الأتوار» : ١٠٨ / ٤٩ - ٥٣ .

من تلك المرحلة في إجازته لابن أبي جامع. مع أنه يبدو أنه قصد هناك الاستيفاء. فهذان دليلان ظرفيّان على ما رجّحناه.

بتاريخ «حادي عشر ذي الحجة تسعمئة هلاليّة هجريّة» / ١٩ تشرين الأول ١٤٩٥م نال الكركي إجازة من محمد بن علي بن خاتون [١٥٨]. والقارئ يعرف ابن خاتون هذا شيخ عيناثا الأكبر، بعد وفاة شيخه أحمد بن الحاج علي العيناثي. ومؤسّس أعرق عائلة علميّة في جبل عامل. والإجازة حفيلة، ذات قيمة خاصة. لأن كاتبها أنزل فيها نصوصاً أمينة لعدّة إجازات مفقودة. وهذا يدلّ على دقّة ابن خاتون، وعلى إهتمامه الخاص بحفظ وتسجيل الوثائق. ولا تنصيص فيها على أن الكركي قرأ على مُجيزه. بل إن من شبه المقطوع به أنه ليس من أساتذته. وإلا لذكره بهذه الصفة فيما حرّره بعد من إجازات. إذن، فهي لمجرّد وصل أسناده بشيوخ المُجيز عبره. وليس هذا بالأمر الغريب.

في مطلع الإجازة يصف ابن خاتون الكركي بـ «العالم العامل والرئيس الكامل». وهذه أوصاف غير عاديّة. هي بالتأكيد ليست من تلك الأوصاف المجّانيّة، التي درج كُتّاب الإجازات على حشو إجازاتهم بها. ونعتقد أنها تُعبّر بصدق عن تأثّر ابن خاتون بشخصيّة ابن عبد العالي. التي جمعت بين عُمق التفكير والقوة والمقدرة. وأثبت في المُقبل من أيامه أنها بمستوى المُهمّات الجسام. لكنها كانت يوم ذاك خبيئة. برسم بلد ناهض يبحث عن هُويّة جامعة. هو "إيران" الصفويّة. لكن ما لاحظناه يدل على أن ابن خاتون لمس ما يُبطنه مُستجيزه من كفاءات.

في السنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م كان ابن عبد العالي في دمشق. حيث أجاز حسيناً بن محمد الحر [١٥٩]. وهي الإجازة التي ستُقدّم لنا معلومات هامة عن آل الحر ومركزهم "مشغرة". والظاهر أنه كان إذ ذاك في بداية رحلته الواسعة. التي زار خلالها دمشق و بيت المقدس ومكّة ومصر و الخليل. وأقام في كل بلد منها مدة. حيث أخذ وتحمّل عن فقهائها ومُحدثيها. يقول في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي وابنه إبراهيم: «وقد رويتُ عن رجال العامّة بمصر والشام من فنون العلم شيئاً كثيراً. خصوصاً الأصول المشهورة في الحديث» [١٦٠]. كما يقول في إجازته لصفي

١٥٨. نصها في «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٢٠ – ٢٧.

١٥٩. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٥٤ – ٥٧.

١٦٠. نفسه: ١٠٨/ ٤٦.

الدين عيسى : «وقد أكثرتُ من المُلازمة لهم والتردّد إليهم في دمشق وبيت المقدس شرّفه الله وعظّمه، وبمصر ومكّة زادها الله شرفاً وتعظيماً. وصرفتُ في ذلك سنين مُتعدّدة وأزمنة مُتطاولة»[١٦١]. ويخصّ بالذكر في إجازته هذه من شيوخه من السّنّة «شيخنا الجليل أبا يحيى زكريّا الأنصاري بمصر» (ت: ٩٢٦ هـ/ ١٥١٨ م) و «شيخنا الجليل العلاّمة كمال الدين، أبي عبد الله، محمد بن أبي شريف المقدسي» (ت: ٩٢٧ هـ/ ١٥١٩ م). وهذه الرحلة تأصيل عن رحلة الشهيد الأول المُماثلة قبل زهاء القرن ونصف. وأمارة لا لَبس فيها على إنفتاح جبل عامل غير المحدود. وعلى ميله إلى الانطلاق خارج حدوده الجغرافيّة والمذهبيّة. لكن الأمارة الأقوى والأوضح سنجدها عند زين الدين بن علي الجُباعي بعد عدّة عقود.

في وقت ما، قُبيل أو خلال السنة ٩٠٩ هـ/ ١٥٠٣ م، آب من رحلته الواسعة إلى مسقط رأسه، بعد أن قضى من التجوال إربه. وإذا نحن اتخذنا من الشيخين اللذين سمّاهما أُنموذجاً، فيمكننا القول إنه خلال تلك الرحلة بنى صِلات طيّبة بأعلام المنطقة وكبار مثقفيها. ويسهُل القول إنه كان لذلك أثره الطيّب على تفكيره وخططه، ويعسرُ التحديد لأسباب واضحة. فلنكتفِ، إذن، بهذا الحكم العام، مادمنا نراه مقبولاً من حيث المبدأ. ولنترك التفصيل لعالِم الأسرار.

وكأنما لم تكن أوبته إلى الكرك إلا ليرمي النظرة الأخيرة على البلد الذي رأى فيه النور، بل النورين: نور الحياة، ونور المعرفة. ذلك أنه في «يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان سنة تسع وتسعماية» / ١٣ آب ١٥٠٣ م استجاز شيخه الجليل الجزائري[١٦٢]. هي الإجازة الأخيرة في تاريخه العلمي. وفي العام نفسه أو بُعيده بقليل، كما قال «سنة تسع وتسعماية تخميناً أو قريباً»[١٦٣] غادر وطنه الذي لم يره بعد ذلك أبداً. ليعيش ما بقي له من العمر بين العراق وإيران. وفي هذه أكثر. حيث حفر اسمه في تاريخ هذا البلد العريق. وهنا تنقطع علاقة بحثنا بهذا الرجل الكبير. لتتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ إيران.

---

١٦١. أيضاً: ١٠٨ / ٨٠.

١٦٢. نص الإجازة في «بحار الأنوار»: ١٠٨ / ٢٨ - ٣٤.

١٦٣. نفسه: ١٠٨ / ٦٩.

لابد من التنويه، في ختام هذا القسم، بأمر نراه هاماً جداً وجديراً بالتنويه. كما أنه في قلب هموم بحثنا. ذلك أن أعظم أعمال الكركي الفكريّة والسياسيّة ظهرت وآتت ثمراتها في مهجره. ومع ذلك فإن علينا أن لاننسى أن الرجل مُمثّل للهُويّة الفكريّة لوطنه. وكان هو الرائد الذي عبّد الطريق لعشرات من أمثاله. هم جميعاً، باستثناء أبناء مشغرة، التي سنخصّها بقسم فيما يأتي، أبناء مدرسة الشهيد. نقول هذا حفظاً لحق جبل عامل في هذه الحركة بوجهيها. وحفظاً لحق بحثنا عن الحركة الفكريّة فيه.

مُخطّط الحركة العلميّة في الكرك

تلميذا الشهيد:
- حسين بن محمد بن هلال الكركي
- محمد بن عبد العالي الكركي

الحسن بن العشرة الكسرواني
- علي بن هلال الجزائري
  - علي بن عبد العالي الكركي
- محمد بن المؤذن الجزيني
- علي بن عبد العالي الكركي
- محمد بن أمير الحاج
- محمد بن علي الجباعي

بنو الأعرج الكركيّون في الوطن والمهجر

حسن بن أيوب بن نجم الدين بن الأعرج الأطراوي
- جعفر الأطراوي
  - حسن الأطراوي- الكركي
    - الأمير السيد حسين (أول من هاجر من العائلة إلى إيران)
      - الميرزا حبيب الله (صدر الدولة)
        - الميرزا مهدي (اعتماد الدولة)
          - الميرزا معصوم
      - أحمد
      - الميرزا علي رضا (شيخ الإسلام في طهران)
      - محمد
        - الميرزا إبراهيم (قاضي طهران)

٤- مَيْس

(١)

"مَيْس" قرية في أعالي جبل عامل من جنوبه. مُشرفة على سهل الحولة من شرقيّه. وقد تُسمّى "ميس الجبل". وهذه الإضافة تكون عادةً لتمييز المُضاف عن آخَر بالاسم نفسه. لكننا لا نعرف بلداً ثانياً في المنطقة يحمل اسماً مماثلاً أو مشابهاً. وقد ذكرها فريحة بهذا الاسم المُركّب[١٦٤]. ونُلاحظ أيضاً أنه كسر حرف الميم من اسمها "مِيس". وكذلك فعل الشيخ يوسف البحراني، حيث ورد ذكر القرية بمناسبة الحديث عن أحد أبنائها[١٦٥]. علماً بأن هذا كان قد اتصل بمهاجر عاملي، من قرية "أنصار". وحصل منه على ثَبَت بأسماء قرى جبل عامل. أدرجه في كتابه الآخَر المعروف باسم «الكشكول»[١٦٦]. وهذا كله يُقوّي الظن بأن اسم القرية كان يُلفظ آنذاك على هذا النحو. وقد ذكر ابن جُبير أنه مرّ في طريقه بين تبنين وهونين بقرية يُسميها "الميسيّة"، يبدو أنها هي نفسها. أخطأ فيه ابن جُبير. وليس هذا ومثله منه بالأمر النادر. أو أن النسّاخ صحّفوا اسمها. أو أنه كان كذلك في زمانه. وما من مُرجّح عندنا بين هذه الاحتمالات الثلاثة.

لكن الذي يبدو مؤكّداً أن القرية عريقة. بالقدر الذي يعنيه معنى العراقة بالنسبة لقرية عامليّة. لِما قلناه فيما فات، من أنه تكوّن سكانياً بالهجرة الكثيفة إليه من مختلف النواحي المحيطة به. وإذا أخذنا في الاعتبار أن القرية تقع بالقرب من سهل الحولة، أي في منطقة معروفة بخصوبة أرضها ووفرة المياه فيها، أمكن القول إنها أكثر عراقة ممّا استجدّ في الجبل بتلك الهجرة. لكن يبدو أنه من المؤكّد أنها استفادت منها.

(٢)

ما من سبب يدعونا إلى القول، إن "ميس" كانت شيئاً مختلفاً عن قرى الجبل البائسة. أو أن أهلها كانوا غير أولئك المزارعين الفقراء. والفضل في الموقع الذي اتخذته في تاريخه الثقافي،

١٦٤. «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية» / ١٧٨.

١٦٥. «لؤلؤة البحرين» / ٨.

١٦٦. «أنيس المسافر»: ١ / ٤٢٨ - ٣٠.

يرجع إلى رجل من أبنائها وحيد. هو علي بن عبد العالي الميسي، الشهير أيضاً بابن مُفْلح. (ت: ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م)[١٦٧]. نقول هذا مع علمنا وكامل انتباهنا لِما وصف به علي بن عبد العالي الكركي والد ابن مُفْلح في إجازته له. حيث قال: «علي بن المرحوم [...] الشيخ الأجل العالم الكامل، تاج الدين، عبد العالي الميسي»[١٦٨]. ممّا جعل عبد الله أفندي يندفع ليصِف الأب بأنه «من أكابر علماء الإماميّة»[١٦٩]. وهو أمر إن صحّ، فإنه يعني أن الفضل في تأسيس حركة الدراسة والتدريس في "ميس"، يرجع إلى الأب عبد العالي، وليس إلى الابن علي. لكننا نعتقد جزماً أن تلك الأوصاف الكبيرة من الكركي، هي من قبيل التأدب واللياقة. فلا يُغدق على الابن أوصافاً أعلى ممّا وصف به الأب. وعلى كل حال فنحن نعرف جيداً ميل الشيخ الكركي إلى مثل هذه اللغة. ومع ذلك فمن المُرجّح أنه كان على شيء من التفقّه. وإن كان من المؤكّد أيضاً أنه كان غيرذي دور فيما آل إليه أمر بلده. يُؤيّد ذلك أن ابن المؤذن الجزيني يقول في إجازته للابن: «الشيخ الصالح المُحقّق زين الدين علي، ولد الشيخ الصالح عبد العالي»[١٧٠]. فاكتفي من توصيف الأب بـ«الشيخ الصالح»، في حين وصف الأب بـ«المُحقّق». وهذا منه، عند العارف الخبير بمُصطلَح مَن مثل الكاتب، في قوّة التنصيص على أن الموصوف ليس من أهل العلم. لكن أقوى دليل على ما ذهبنا إليه، هو أننا لا نجد لعبد العالي الميسي أدنى ذكر حيث كان يجب أن يُذكَر، لو أنه كان على شيء ممّا وصفه به الكركي. خصوصاً وأنه في زمانه كان الفقيه قد غدا جزءاً أساسياً من حقيقة جبل عامل المعنويّة. كما كانت التقاليد المُتصلة بهذا الوضع قد أصبحت ناضجة. ومنها هذه التسجيلات التي نعتمد عليها الآن في دراستنا لتاريخه الثقافي. ويستحيل في ظل هذه الشروط أن يضيع ذكر فقيه كبير ضياعاً كاملاً.

نخلُص من ذلك كلّه إلى التأكيد على أن علياً بن عبد العالي الميسي هو رائد حركة الدراسة في قريته. وهي تلك الحركة التي أعطتها أن تكون إحدى المراكز المُمثّلة للنهضة العامليّة. وإن لفترة قصيرة، لاتزيد على النصف قرن. ذلك أن "ميس" التحقت بالنهضة العالقة في جبل

---

١٦٧. «رياض العلماء»: ٤/ ١١٦.

١٦٨. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٤١.

١٦٩. «رياض العلماء»: ٣/ ١٢٩.

١٧٠. «بحار الأنوار»«: ١٠٨/ ٣٥.

عامل حين بدأت شمسها تميل عن الأوج. الأمر الذي نستطيع رؤيته اليوم من موقعنا العالي في الزمان. وإن يكن في أوانه من الغيب المستور.

(٣)

قرأ ابن عبد العالي على محمد بن محمد بن المؤذّن الجزيني، وعلى محمد بن أحمد الصهيَوني. وقد عرفنا الإثنين فيما فات تلميذين لابن العشرة في الكرك. وقد أجازه الأول إجازة صدرت في «حادي عشر محرم الحرام من شهور سنة أربع وثمانين وثمانماية»[١٧١] /٦ نيسان ١٤٧٩م. وأجازه الثاني في «يوم الخامس من ذي القعدة سنة تسع وسبعين وثمانماية»[١٧٢] /١١ أيار ١٤٧٥م. أي بفارق أربع سنوات. ممّا يحمل على الظن أنه قرأ على الصهيَوني أولاً، ثم على ابن المؤذن. لكن الشيخين كلاهما لم يذكرا مكان صدور الإجازة. كما تقضي التقاليد غالباً. ولو أنهما فعلا، لأعاننا ذلك على عمارة سيرة أفضل لتلميذهما النجيب. ومن المُحتمَل أنه كان في الكرك. ففي ذلك التاريخ كانت القرية في أوج حضورها. وفيها اجتمع الشيخان تلميذين على ابن العشرة الكسرواني. كما عرفنا من القسم السابق. لكن ما يُضعف هذا الاحتمال أن اجتماعهما الثابت حصل قبل ما يزيد على العشرين سنة عداً.

هذا، وينقل المجلسي وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لصاحبه والي الأهواز عبد الله النجاشي. يرويها الشهيد الثاني، زين الدين بن علي الجُباعي، عن شيخه علي بن عبد العالي الميسي، عن شيخه ابن المؤذن. يسوق السند إلى الإمام[١٧٣]. وفيها يؤرّخ الميسي تلقّيه نص الوصيّة عن شيخه ابن المؤذن بالتاريخ نفسه الذي منحه هذه فيه إجازته. ودلالة الجمع بين النصين طريفة ونادرة. ذلك أنها تقف بنا على ما قد يكون من شعائر يوم الإجازة. حيث الشيخ يُرفق إجازته، الصادرة عنه لتلميذه، بحديث فيه وصايا أخلاقيّة. يُزوّده بها في يوم إعلان نضجه العلمي، واستقلاله في البحث. كأنه يقول له، إن العلم وحده ليس بشيء بالنسبة للفقيه العامل.

---

١٧١. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٣٥.

١٧٢. نفسه/ ٣٨.

١٧٣. «بحار الأنوار»: ٧٥/ ٣٦٦.

من المعروف عن الميسي تواضعه الجمّ. على ما كان يتمتّع به من منزلة عالية. حتى أنه كان ينقل الحطب ليلاً على حماره في قريته لتلاميذه وعياله[١٧٤]. ومثل هذا يُذكَر لتلميذه الشهيد الثاني. وهي صورة في غير حاجة إلى بيان عن نمط الحياة اليوميّة لأولئك العلماء الفقراء.

(٤)

ترك الميسي جملة مؤلفات. يذكر تلميذه الشهيد الثاني منها اثنين: «شرح رسالة صِيَغ العقود والإيقاعات». والأصل لعلي بن علي الفقعاني. الذي عرفناه فيما فات مؤلفاً لـ «مسائل ابن طي» الشهيرة. و «شرح الجعفريّة» لعلي بن عبد العالي الكركي[١٧٥]. لكن له أيضاً «شرح القواعد» للعلامة الحلّي[١٧٦]. وأشهر كتبه رسالة تداولتها الأيدي زمناً طويلا عُرفت باسم «الميسيّة»، نسبةً إليه. «ينقل عنها العلماء كثيراً»[١٧٧]. لم يذكرها آغا بزُرُك في «الذريعة» لسبب غير معلوم. لكنه لابد أن يكون وجيهاً. لِما نعرفه من دقّة الرجل وحُسن تتبّعه.

(٥)

الظاهر أن أول مَن درس على الميسي، هو الحسن بن جعفر بن الأعرج الكركي[١٧٨]. الذي عرفناه في القسم السابق. والذي أصبح فيما بعد أعلى شيوخ الكرك مقاماً. حتى وفاته سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م. وربما كانت دراسته عليه في الكرك. حيث احتملنا سابقاً، وإن بضعف، قراءة الميسي على شيخيه ابن المؤذن والصهيَوني. لكن من المؤكّد أنه، أي الميسي، آب في النهاية إلى قريته النائية، في تاريخ لا نعرفه. وخلال ما بقي له من العمر، الذي امتدّ حتى السنة ٩٣٨هـ/١٥٧٠م، كان «الإمام الأعظم، شيخ فضلاء الزمان، ومُربّي العلماء»[١٧٩] على حدّ ما قاله تلميذه

---

١٧٤. «أعيان الشيعة»: ٨/ ٢٦٢.
١٧٥. «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»: ١٥/ ١١٠ و ٥/ ١١٠ - ١١. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ٦٢.
١٧٦. «رياض العلماء»: ٤/ ١٢٢.
١٧٧. «أعيان الشيعة»: ٨/ ٢٦٢.
١٧٨. «بحار الأنوار»: ٤٢/ ٣ و «الذريعة»: ١٣/ ٣٦٧.
١٧٩. «رياض العلماء»: ٤/ ١١٦.

زين الدين بن علي الجُباعي. باستثناء عدّة سنوات من آخر عمره، انقطع فيها عن التدريس لكبر سنّه.

نعرف من أولئك الذين ربّاهم الميسي، على حدّ ما قاله تلميذه الجُباعي ثلاثة هم:

الأول: الحسن بن جعفر بن الأعرج الكركي. وقد ذكرناه.

الثاني: علي بن أحمد بن الحَجّة الجُباعي [١٨٠].

الثالث: ابنه زين الدين بن علي، الشهير بالشهيد الثاني. ذكر هو دراسته على شيخه هذا في "ميس" في السيرة الذاتيّة التي كتبها. وأثبتها تلميذه محمد بن علي بن الحسن الجزيني في كتابه المفقود «بُغية المُريد في الكشف عن أحوال الشهيد». لكن حفيده زين الدين علي بن محمد ابن الحسن بن زين الدين، حفظ لنا ما وصل إليه من سيرة جد والده، في كتابه «الدر المنثور من المأثور وغير المأثور». في أوائل هذه السيرة يذكر الشهيد الثاني، أنه في شهر شوال ٩٢٥ هـ/ تشرين الأول ١٥١٩ م ارتحل من بلدته "جُباع" قاصداً "ميس"، للقراءة على شيخها ابن عبد العالي. وأقام فيها بقصد الدراسة حتى أواخر سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م. أي ما يقلّ قليلاً عن التسع سنوات. والظاهر أنه لم يُفارقه في ذلك التاريخ إلا بسبب انقطاعه وعجزه. كما أشرنا أعلاه. وختم الشهيد هذه الفقرة من مُذكراته بالقول: «كان من جُملة ما قرأته عليه شرائع الإسلام والإرشاد وأكثر القواعد» [١٨١]. وسنقف عند هذه المعلومة في ختام هذا الفصل.

أولئك الثلاثة هم أبرز تلاميذ الميسي. إثنان منهما قرءا عليه في "ميس" بالتأكيد. أمّا الحسن ابن جعفر الكركي، فقد سجّلنا فيما فات احتمال أن يكون قد قرأ عليه في الكرك. ممّا يعني أن الاحتمال الآخَر مقبول أيضاً. لكننا قرأنا قبل قليل كلاماً لتلميذه الأبرز، زين الدين بن علي الجُباعي، وصف فيه شيخه بأنه «مُربّي العلماء». وهو مَن نعرف عنه الحرص الشديد على دقّة العبارة. ووصفه هذا يودع في النفس أن عديد تلاميذه أكبر من ذلك بكثير. وعليه فلعلّ أولئك الثلاثة هم مَن حفظ لنا التاريخ ذكرهم. في حين ضاع ذكر غيرهم، لضعف شأنهم بالقياس إلى أولئك المعارف الثلاثة. وهذا أمر ليس بالغريب.

---

١٨٠. «أمل الآمل»: ١/ ١٨٨.

١٨١. «الدر المنثور»: ٢/ ١٦٢.

(٦)

ينقل عبد الله أفندي عن حسين بن عبد الصمد الجُباعي «في مجموعه» النص الذي أرّخ فيه لوفاة الميسي. وهو الذي أدرك حياته ولم يقرأعليه. وفيه: «توفي شيخنا الإمام العلاّمة التقي الورع الشيخ علي بن عبد العالي الميسي، أعلى الله مقام نفسه الزكيّة، الأربعاء عند مُنتصف الليل. ودخل قبره الشريف بجبل صدِّيق النبي ليلة الخميس الخامس أو السادس والعشرين من شهر جُمادى الأُولى سنة ثمان وثلاثين وتسعماية»[١٨٢]. وهذا تاريخ دقيق، غني بالتفصيلات. صدر عن رجل عُرف عنه بأنه، كجدّه من قبله، معنيّ بمثل هذه التسجيلات. ومنه يظهر أن ما قاله الحر، إن وفاته كانت سنة ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م غير دقيق.

يُثير نص الجُباعي عندنا أكثر من سؤال. فلماذا دُفن بـ "جبل صدّيق النبي". الذي نعرف أنه إلى الشرق من بلدة تبنين المعروفة. يبعد عن ميس مسافة غير قصيرة. تبلغ زهاء العشرة كيلو مترات، على الطرق القديمة؟ ثم، لماذا يُدفن ليلاً. «ليلة الخميس...»؟

ما من جواب عندنا على كلا السؤالين. لكن من المؤكّد أنه دُفن في غير المكان والزمان المُتوقّعين. وإننا لنظن ظنّاً أن الأمر يتصل بما جدّ على جبل عامل وأهليه بعد أن أصبح في حوزة العثمانيين. وتبدّل المُناخ السياسي فيه تبدلاً جذرياً. وبتأثير ذلك على الحياة اليوميّة لعلمائه. ومن ذلك زعزعة استقرارهم. واضطرار بعضهم إلى التحوّل عن أماكن سكنهم العاديّة و الأثيرة. ممّا سنُفصّل الكلام فيه بقدر الحاجة في القسم المُخصّص لجُباع. وعلى كل حال، فها نحن قد سجّلنا هذه الملاحظة. عسى أن يأتي بعدنا مَن يجد ما يفسّرها. إن كان ما لاحظناه صحيحاً.

(٧)

كان علي بن عبد العالي الميسي، القمّة التي وصلت إليها بلدته بسرعة. لكنها انحدرت عنها بالسرعة نفسها من بعده. وما ذلك، فيما نرى، إلا لأنها جاءها والبلاد قد اقشعرّت، تحت وطأة الحكم العثماني القاسي، وصوّح نبتها. وآذنت شمس النهضة بمغيب.

---

١٨٢. «رياض العلماء» ٤/ ١٢١.

من بعده لم يبقَ في ميس إلا ابناه : ظهير الدين، أبو إسحق إبراهيم، وجعفر . والأول هو الأكثر ذكراً بين الإثنين . وصفه الحر بانه : «كان عالماً فاضلاً حيياً زاهداً عابداً ورعاً مُحققاً فقيهاً مُحدّثاً ثقة جامعاً للمحاسن . كان يفضُل على أبيه في الزهد والعبادة» [١٨٣] . لكننا لانعرف له نشاطاً يتناسب مع بعض هاتيك الأوصاف . خصوصاً قوله : «مُحققاً فقيهاً مُحدّثا» . فالمجلسي، مثلاً، لا يأتي على ذكره سوى مرتين : أولاهما بمناسبة ذكر إجازة تلميذ والده، زين الدين بن علي الجُباعي، له ولولده عبد الكريم . المؤرخة في ١٤ رجب ٩٥٧هـ/ ٩ كانون الثاني ١٥٥١م[١٨٤] دون ذكر المكان . لكن لاريب أنه كان من جبل عامل . والثانية إجازته لولده عبد الكريم . الصادرة في النجف الأشرف، «في أوائل شهر رمضان من سنة خمس وسبعين وتسعماية» [١٨٥]/ آذار ١٥٦٨م . ممّا نفهم منه أن الأب والابن كلاهما كان قد هاجر إليها قبل ذلك التاريخ، في جُملة مَن هاجر من فقهاء بلده . ومنها انتقل عبد الكريم إلى إيران . وكان «من علماء دولة الشاه طهماسب الصفوي» [١٨٦] . وهو والد الشيخ لطف الله العاملي الشهير . الذي يُنسب إليه "مسجد الشيخ لطف الله" في أصفهان . المسجد الذي يُعتبر حتى اليوم من معالم المدينة البارزة . وأحد أجمل نماذج العمارة الإسلاميّة في العالم .

---

١٨٣ . «أمل الآمل» : ١ / ٢٩ .

١٨٤ . «بحار الأنوار» : ١٠٨ / ١٣٧ .

١٨٥ . نفسه : ١٠٨ / ١٨٠ – ٨١ .

١٨٦ . «رياض العلماء» : ١ / ١٩ .

مخطط الحركة العلمية في «ميس» ثم «إيران»

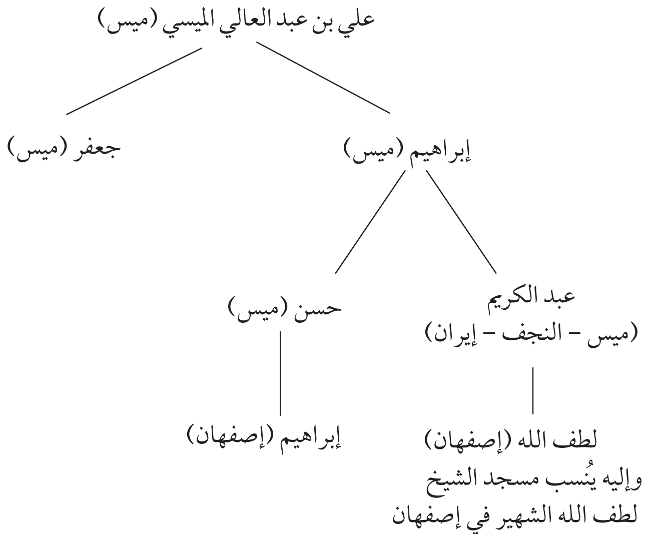

٥- جُبَاع

(١)

" جُبَاع " أو " جُبَع " . وقد يُقال، خصوصاً على ألسنة القدماء : «جُبَاع الحلاوة» . بلدة على التلال المُشرفة على مدينة صيدا، على مسافة نحو العشرين كيلومتراً منها .

واستناداً إلى فريحة، فإن الاسم من الآرامي . يعني الجبل والتلّة والهضبة . والجذر سامي مُشتَرَك . يُفيد معنى العلوّ والارتفاع . ورد في التوراة مرتين [١٨٧] . وفي إقليم الشوف من لبنان قرية تحمل الاسم نفسه . وكذلك في فلسطين " جُبَع بنيامين " . والعلاقة بين الاسم والمُسمّيات واضحة .

لسنا نعرف لـ " جُبَاع " قبل أواسط القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد ذكراً فيما جدّ على جبل عامل من مراكز علميّة . أو أن أحداً من أبنائها قد التحق بمركز من هاتيك المراكز . التي صرنا على خُبر بها مركزاً مركزاً .

نقول «قبل أواسط القرن التاسع للهجرة» ، لأن أول مَن برَز منها وعرفناه هو محمد بن علي الجُبَاعي (ت : ٨٨٦ هـ / ١٤٨٧ م) . نقول بهذا حتى بعد أن اطلعنا على إجازة علي بن علي بن طي (ت : ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) لمحمد بن علي هذا . التي يذكر فيها المُجاز وأباه وجدّه بقوله : «محمد بن الشيخ العلاّمة، أبي الفضائل، زين الدنيا والدين، وشرف الإسلام والمسلمين، علي ابن الشيخ بدر الدين حسن، الشهير بالجُبَعي» [١٨٨] . ذلك أن والد محمد، أعني علياً، وجدّه، أعني حسناً، وإن كانا فقيهين ذوي مكانة، لكنهما لم يكونا جُبَاعيين بالتاكيد . وذلك بشهادة محمد نفسه . وهو الذي عرفناه معنياً ومولعاً بالتسجيلات - حيث أرّخ لوفاة والده بقوله : «ومات والدي علي بن الحسن بن محمد بن صالح اللُّويزائي في جُمادى الأُولى سنة ٨٦١ » [١٨٩] . و " اللويزائي " نسبة إلى قرية " اللويزة " ، غير البعيدة عن جُبَاع، إلى الجنوب منها . وعلى هذا فقول ابن طي، في ختام ما اقتبسناه من كلامه : «الشهير بالجُبَعي» يرجع إلى المُجاز وليس إلى جدّه .

---

١٨٧ . «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية» / ٤٦ .

١٨٨ . «بحار الأنوار» : ١٠٧ / ٢١٢ .

١٨٩ . «بحار الأنوار» : ١٠٧ / ٢٠٣ .

لكن تقي الدين، إبراهيم (ت : ٩٠٥ هـ/ م ١٤٩٩ م)[١٩٠]، أخا محمد، ينسب نفسه هكذا: «الكفعمي مولداً. اللويزي محتداً. الجُبعي أباً»[١٩١]. ولسنا نرى في هذا تضارباً بين قولي الأخوين. فكلاهما بسيرة والده عليم. ولاسبب عنده لقول ما ليس بحق. كل ما في الأمر اختلاف في وجهة النظر. فمن المؤكد أن أصل العائلة من قرية اللويزة. بشهادة قول تقي الدين «اللويزي محتداً». وأن الأب تحوّل عنها إلى جُباع «الجُبعي أباً». أي أن نسبته إلى أي من القريتين صحيحة. مع اختلاف اللحاظ.

ليست البُغية من هذا التدقيق إلا دلالته الضمنيّة. ذات العلاقة بالتأريخ لنشأة النشاط العلمي في القرية. وها نحن قد عرفنا الآن أن منبت أول من برزَ فيها لم يكن منها. وهذه النتيجة تؤكّد ما قلناه آنفاً، إنها غير ذات تاريخ يصل حاضرها بماضيها.

(٢)

نبت محمد بن علي في بيت علم. فوالده زين الدين علي وصفه عبد الله أفندي بـ«الفاضل العالم الجليل الفقيه»[١٩٢]. كما وصفه السيد الأمين بقوله: «كان من أعاظم العلماء»[١٩٣]. وقد أنجب ثلاثة فقهاء: تقي الدين إبراهيم، المُشتهر بالكفعمي. نسبة إلى القرية التي وُلد أو أقام فيها "كفرعيما". وهي من القرى الدارسة. وتقي الدين مُصنّف غزير القلم، مُتنوّع الموضوعات. لكن لادليل على أنه عاش في جُباع. فضلاً عن أن يكون ذا دور في إطلاق الحركة العلميّة فيها. وعليه، فإن دراسته تخرج عن خطّة هذا القسم. وأحمد الذي يذكره الأفندي عرضاً، واصفاً إياه بـ«الفاضل الجليل»[١٩٤]. وتجاهله أو جهله الحر في «أمل الآمل» والسيد الأمين في «أعيان الشيعة». ممّا يدل على أنه لم يكن في منزلة وحضور أخويه. ثم محمد الذي قُدِّر له أن يكون الفاتحة والعنوان لمجد بلدته.

---

١٩٠. «الذريعة»: ٢٠/ ٥٦.

١٩١. إبراهيم الكفعمي: «الجُنّة الواقية والجنّة الباقية» (المعروف باسم "المصباح") ط. بيروت ١٤٠٢ هـ م ١٩٨٣ م/ ٧٧٠.

١٩٢. «رياض العلماء»: ٣/ ١١٤.

١٩٣. «أعيان الشيعة»: ٨/ ١٨٥.

١٩٤. «رياض العلماء»: ٣/ ٤١٤.

ونحن نعلم ممّا فات، أعني من أُوليات القسم الذي خصّصناه للكرك، أن محمداً قرأ فيها على ابن العشرة الكسرواني. وما من شك في أنه شيخه الرئيس. ذلك أن التلميذ، الذي سنعرفه بعد قليل مولعاً أشدّ الولع بالتسجيل والتأريخ، لم يذكر غيره شيخاً له. يُعزّز ذلك أنه قال، بعد أن أرّخ لوفاة شيخه هذا: «قرأتُ عليه كثيراً»[١٩٥].

لكننا نجد له إجازة من علي بن علي بن طي، الذي عرفناه سابقاً، يقول فيها: «قرأ عليّ هذه الصحيفة الكاملة من أدعية مولانا وسيدنا، الإمام زين العابدين عليه السلام [...] محمد بن الشيخ [...] علي بن بدر الدين حسن، الشهير بالجُبعي»[١٩٦]. تاريخ الإجازة «رابع شهر رمضان المُعظّم قدره من شهور سنة إحدى وخمسين وثمانماية» / ١٣ كانون الأول ١٤٤٧ م. وهذه مشيخة محصورة بموضوعها. تُبيح لنا فقط أن نعتبر المُجيز شيخاً للمُجاز له بقدرها.

ثم إن الأفندي يصف محمداً بأنه «تلميذ ابن فهد»[١٩٧]. يعني أحمد بن فهد الحلّي. ولم نجد هذه المعلومة عند مَن سواه. لكننا نعرف قائلها مُدقّقاً، لا يُلقي الكلام جزُافاً. كما نعرف أن ابن فهد قد نزل " الكرك " حيث كان الجبعي يقرأ على شيخه ابن العشرة. وأقام فيها زمناً. وقرأ عليه فيها مَن قرأ. كما ذكرنا في القسم المُخصّص لها. وعليه فإن عناصر الصدق مُتوفرة في هذا الكلام. وعلى كل حال، فإننا نُسجّل هذه المعلومة على ذمّة قائلها. خصوصاً وأنه لم يذكر مصدرها.

هذا، وإن زين الدين بن علي الجُباعي، الشهيد الثاني، يصفه بـ «الشيخ الإمام». وذلك في إجازته لحفيده حسين بن عبد الصمد[١٩٨]. وستكون لنا عودة إلى كلام الشهيد هذا.

بين أيدينا نص طريف كتبه الجُباعي عن نفسه. يبدو فيه مولعاً غاية الولع بالأسفار[١٩٩]. بحيث إنه في أثناء خمسة وعشرين سنة من عمره سافر ست سفرات طويلة. الأُولى، إلى الحجاز لغرض الحج ولا ريب. الثانية، إلى " الروم " يعني " الأناضول ". الثالثة والسادسة إلى العراق. الرابعة إلى بيت المقدس. والخامسة إلى " العجم ". لكنه لم يقُل لنا ما الذي حمله إلى تلك

١٩٥. «بحار الأنوار»: ١٠٧ / ١١٠.
١٩٦. نفسه / ٢١٣.
١٩٧. «رياض العلماء»: ١ / ١٩٣.
١٩٨. «بحار الأنوار»: ١٠٨ / ١٣٨.
١٩٩. نفسه / ٢٠٣.

البقاع، على بُعد الشقّة، كما فعل الشهيد الأول من قبله، وعلي بن عبد العالي الكركي وزين الدين بن علي الجُباعي من بعده. وإذا كان سفره إلى غير "الروم" مُتوقّعاً ومفهوماً من مثله، باعتبار ما فيها من مشاهد مقصودة، فإن سفره إلى هذه يبدو لنا غريباً ومُستحقاً للمُسائلة عن سببه. ولا نجد له تفسيراً إلا ما بدا لنا من ولع بالأسفار.

ليس في مجموع الإجازات التي بين أيدينا إجازة للجُباعي من شيخه ابن العشرة. فإمّا أن الإجازة لم تصدر أصلاً، لسبب أو غيره، ممّا لا نعرفه على كل حال. وهو أمر مُستبعَد جداً، خصوصاً وأنه شيخه الأول. وإمّا أنها مفقودة، مثلما ضاع الكثير من أمثالها. وهو الأرجح.

لكن السيد حسن الصدر يورد نص إجازة له من علي بن محمد بن علي بن السكون الحلّي بـ «الصحيفة السجّاديّة» «كتبها على نسخة صاحب الترجمة»[٢٠٠]. يعني الجُباعي نفسه. وهي إجازة لا يمكن أن تكون صحيحة. لأن ابن السكون توفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٤٤٧ م[٢٠١]. كما أن آغا بزُرُك يأتي على ذكر إجازة له أيضاً بالموضوع نفسه من "علي بن محمد بن على بن محلي"[٢٠٢]. المُتوفّى، على قوله، سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م. تاريخها سنة ٨٥١ هـ/ ١٤٤٧ م. وصاحب هذه الإجازة المزعومة غير معروف. والظاهر أنه خيالي. الخلاصة: إنه بعد التمعّن، نكتشف أن هاتين الإجازتين المزعومتين ليستا إلا إجازة ابن طي السابقة الذكر. بعد أن عدا على اسمه قلم النسّاخ بالتصحيف. (لاحظ التشابه بين "طي" و"محلي"). نقول كل هذا دفعاً لوهم. قد تترتّب عليه نتائج بعيدة عن الصواب.

(٣)

أيضاً لا تُذكَر للجُباعي مؤلفات. عدا مجموعه الهام، الذي سنفرغ له على التوّ. خلافاً لأخيه تقي الدين الكفعمي. وأيضاً لا نعرف له تلاميذ، سوى ابنه عبد الصمد. فعلامَ، إذن، استحقّ لقب "الإمام"؟ الأرجح أن ذلك يرجع إلى نقص معلوماتنا عنه. خصوصاً وأن الوصف صدر عمّن لا يرقى الريب إلى اطلاعه ودقته.

---

٢٠٠. «تكملة أمل الآمل»/ ٣٥٦.

٢٠١. «أعيان الشيعة»: ٨/ ٣١٣.

٢٠٢. «الذريعة»: ١/ ٢٢٠.

ختام هذا التعريف، الذي يجود من الموجود، أن نقف على الأثر الوحيد الباقي للجبُاعي. ذلك المعروف باسم «المجموع» أو «مجموع الجبُاعي». وما ندري هل هو الاسم الذي إختاره له مؤلفه، أم أنه اسم إرتجالي. وضعه له مُن نقلوا عنه، وهم كثُر، آخذين بالاعتبار مادة الكتاب.

و «المجموع» في مجلّدين أو أكثر. وقع للمُحدّث النّوري (ت: ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢ م) منها مجلّدان، هما اليوم في "كتابخانه ملك" في طهران. وفي مكتبة مدرسة السيد البروجردي في النجف الأشرف نسخة أو مجموع آخَر. عليها تعليقات لشرف الدين، محمد بن زهرة الجبُاعي (ت: ٩٤٤ هـ/ ١٥٣٧ م) ولبهاء الدين العاملي (ت: ١٠٣٠ هـ/ م ١٦٢١ م). وكلاهما من أُسرة المؤلف. والمجموع لم يجد حتى الآن مَن يهتم بتحقيقه ونشره. مع أنه يُنقَل عنه كثيراً جداً. لِما فيه من تأريخات وتحقيقات دقيقة ونفيسة. ولذلك فإننا سنعتمد في التعريف به على ما اقتبسه عنه المجلسي في مختلف مجلدات «بحار الأنوار»، وهو كثير جداً.

والمجموعات فن من فنون التأليف، وليس التصنيف. يجمع فيها مؤلفها ما يقع له أثناء مطالعاته، وما قد يطّلع عليه من أحداث، وأحوال مَن يعرفهم من رجال. ومن هنا فإنها تعكس بدرجة عالية ثقافة جامعها وحُسن اختياره، وما يجده أحرى بالاهتمام. ولذلك فإن قيمة هذا النمط من التأليف تتفاوت تفاوتاً بالغاً.

بالنسبة إلى مجموع الجبُاعي، فإن مادته الأكثر أهميّة بالنسبة للباحث، هي ما فيه من تأريخات مباشرة. كان فيها شاهداً. كأن يذكر حديثاً، أو يورد معلومات عمّن عرفه، أو وصل إليه خبره من معاصريه. بشكل سيرة مختصرة غالباً. والحقيقة أن كثيراً جداً ممّا أخذناه عن «بحار الأنوار» أخذه المجلسي عنه.

أمّا مصادره، فمنها ما هو مباشر. مثل الترجمة التي علّقها لشيخه ابن العشرة. ومنها ما هو منقول عن مصادره [٢٠٣]. ومنها، وهو الأكثر أهميّة، ما هو منقول عن «خط الشهيد» [٢٠٤]، يعني ابن مكّي. وهو كثير جداً. وقد صرّح المجلسي بأن المجموع الذي كان عنده هو بخط مؤلفه [٢٠٥].

٢٠٣. مثلاً: «بحار الأنوار»: ٢/ ٢١١ و ٨٠/ ١٩١.

٢٠٤. «بحار الأنوار»: ٥١/ ٦٤، ٦٠/ ٢٢٢، ٧٤/ ٢٣٣، ١٠٧/ ١ - ٢١٤.

٢٠٥. نفسه: ١٠٧/ ٢٠٣.

والحقيقة أن «المجموع» بمُجمله يدلّ على أن مؤلفه يتمتّع بحس تاريخي مُرهف، وكفاءة نقديّة عالية، واطلاع واسع. أهلّه لأن يُحسن انتقاء مادة كتابه. ولا ريب أن كثرة النقل عنه يدلّ على أنه نجح في أن يُيسر فيه ما يعزّ الحصول عليه من غيره. بل ومن المُرجّح أن يضيع لو لم يحفظه. ونأمل أن يكون هذا التعريف به مُذكّراً بأهميته البالغة. وحافزاً للباحثين وأهل التحقيق، ممّن يتيسّر لهم الوصول إلى نُسخه الخطيّة حيث هي، إلى نشره النشرةّ العلميّة التي يستحقّها.

(٤)

يمكننا القول بثقة كافية، إن موقع محمد بن علي الجُباعي من جُباع، بوصفها مركزاً علميّاً، هو موقع مَن وضع الحجر الأساس، ولا نقول المؤسّس. لأننا لم نشهد له نشاطاً تاسيسياً يُذكَر. مثل مَن وصفناهم ووصفنا أعمالهم من قبلُ من كبار المؤسسين. وخصوصاً أننا لم نره في قلب حركة فيها دراسة وتدريس. وإن كنا قد سجّلنا فيما فات احتمال أن يكون قد خفي علينا قسط كبير وهام من أخباره وأعماله. وفي كل حال، فإننا نراه قد فتح الباب وإن مُوارَباً، بالقدر الذي يتسع لشخصه. لكننا سنرى الباب نفسه وقد انفتح على مصراعيه من بعده. وسنرى جُباع وقد آل أمرها إلى أن غدت حاضرة علمية تعج بالحياة والحركة الفكريّة، من كل لون. وربما، بل الأرجح، ما كان لتلك الصيرورة أن تؤول مآلها لولا تلك البداية.

والحق أن جُباع لم تبلغ الشأو الذي أهلّها لأن تنتظم في سلك المراكز العلميّة العامليّة ذات الحضور والأثر، إلا على يد ابنها زين الدين بن علي الجُباعي، الأشهر بلقب الشهيد الثاني (ق: ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧ م). أي بعد زهاء نصف القرن من وفاة محمد بن علي. لكن من الحق أيضاً أن نذكر أن السلسلة لم تنقطع ما بين الرجلين، بل كانت مُتصلة الحلقات اتصالاً ما. ونعرف من تلك الفترة ثلاثة أسماء:

أولهم: علي بن أحمد بن الحجّة النحاريري (ت: ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩ م) نسبةً إلى قرية النحارير، وهي نفسها القرية المعروفة حتى اليوم باسم "طلّوسة"، وهو الاسم الذي سمّاها به الصليبيون، على اسم المدينة الفرنسيّة "تولوز" كما ذكرنا فيما فات. وابن الحجّة تلميذ ظهير

الدين بن علي بن الحسام العيناثي، في عيناثا وعلي بن عبد العالي الميسي، في "ميس" [٢٠٦]. وأستاذ نجم الدين التراكيشي المشغري[٢٠٧] وابنه زين الدين، الشهيد الثاني [٢٠٨].

ثانيهم: حسين بن أبي الحسن الجُباعي (ت: ٩٦٣ هـ/١٥٥٥ م). وهو جدّ لعائلة علميّة عامليّة كبيرة واسعة الانتشار في جبل عامل، ثم منه في العراق وإيران و الحجاز. تفرّعت من بعد إلى فروع ثلاثة: آل نور الدين في لبنان، وآل شرف الدين فيه أيضاً، وآل صدر الدين في العراق وإيران. ومن هذا الفرع الإمام موسى الصدر والشهيد السيد محمد باقر الصدر.

ثالثهم: عبد الصمد بن محمد الجُباعي (٨٥٥-٩٣٥ هـ/١٤٥١-١٥٢٨ م). الذي لا نعرف عنه ما يُذكَر. لكن الشهيد الثاني وصفه في إجازته لابنه حسين بن عبد الصمد بـ «الشيخ الصالح العالم العامل المُتقن» [٢٠٩]. كما أننا نجد في المصدر نفسه الذي أخذنا عنه هذه المعلومة ما يُفهم منه أنه كان له تلاميذ. ولا تُذكَر له مؤلفات. لكن الأفندي يقول إنه رأى له مجموعاً بخطّه، يصفه بما يُذكّرنا بمجموع والده. ضمنه ديوان شعر له[٢١٠]. وعبد الصمد هذا هو والد حسين، الذي سنعرفه بوصفه أول تلاميذ الشهيد الثاني، ورفيق أسفاره. وجدّ بهاء الدين العاملي الشهير. شيخ الإسلام في إيران فيما بعد. وصاحب الدور التاريخي الكبير فيها. لكنه فوق ذلك كلّه، أحد أعظم العقول التي أنجبتها الإنسانيّة[٢١١].

(٥)

والشهيد الثاني موضوع ممتاز للدراسة. وذلك لأسباب ثلاثة: أولها، أنه كان لمدّة غير قصيرة شيخ جبل عامل غير مُنازَع، ومدار الحياة العقليّة فيه تصنيفاً وتدريساً. وثانيها، أنه الوحيد بين كل الذين عرضنا لهم في هذا البحث الذي نملك معلومات مُفصّلة عن سيرته وأعماله. وثالثها، قتلته المُدويّة، وما كان لها من آثار بعيدة تجاوزت حدود وطنه. بعضها ما يزال حيّاً متفاعلاً حتى اليوم.

---

٢٠٦. «أمل الآمل»: ١/ ١٠٦ و ١١٨.

٢٠٧. «رياض العلماء»: ٥/ ٢٣٩.

٢٠٨. «الدر المنثور»: ٢/ ١٥٨.

٢٠٩. «بحار الأنوار»: ١٠٨/ ١٤٨.

٢١٠. «رياض العلماء»: ٣/ ١٢٨.

٢١١. راجع دراستنا المُسهبة عنه في كتابنا «ستة فقهاء أبطال».

تستقرّ حياة الشهيد الثاني على قاعدة من نسب عريق. يضرب إلى إرهاصات النهضة العامليّة وروّادها. فهو زين الدين بن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن جمال الدين بن تقي الدين بن صالح بن مُشرف. وقد عرفنا هذا الأخير فيما فات بوصفه رابع السبعة الروّاد، الذين أسّسوا للنهضة. والمعروف أن آباءه جميعاً من الفقهاء بدرجة أو غيرها. ولا ريب أن أصل العائلة من قرية طلّوسة وقد قلناآنفاً إنها من القرى التي مصرّها الصليبيون، إبان احتلالهم الطويل لجبل عامل، على أرض أو قرية اسمها " النحارير " . وقد ظلّ الشهيد ينسب نفسه إلى جُباع تارةً، وإلى النحارير أُخرى. وقد يُزاوج بين النسبتين. الأمر الذي نفهم منه أن هجرة أُسرته إلى جُباع لم تكن قديمة. يؤيّد ذلك أن الأفندي يقول في أبيه «الجُبعي النحاريري» [٢١٢]. فهذا دليل على أن نسبته إلى بلده الأول لم تكن قد نُسيت في زمانه. بحيث صحّت نسبته إلى البلدين معاً.

مصدرنا الأساس لسيرته كتاب «بغُية المُريد في الكشف عن أحوال الشهيد». أو بالأحرى ما بقي منه. صنّف الكتاب تلميذه محمد بن علي العَودي الجزيني (ح : ٩٧٥ هـ/ ١٥٦٧ م) وفيه ما وجده من سيرة شيخه بقلمه. بالإضافة إلى ماوعاه من سيرته. ويؤخذ من العنوان المُسجّع أنه كتبه بعد مقتل أستاذه، في إيران ولا ريب. لأننا نعلم أنه هاجر إليها في حياته.

الكتاب من عشرة فصول. وقع إلى حفيد الشهيد، علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين (ت : ١١٠٤ هـ/ ١٦٩٢ م) في إيران ثلاثة فصول. أنزلها بنصّها في مجموعه «الدر المنثور من المأثور وغير المأثور». بعد أن ضمّ إليها ما يعرفه من سيرة جدّ والده. وليس من العسير التمييز بين الأقلام الثلاثة. وسنُخصّص المطلب التالي لمرحلة الطلب من سيرته. لِما لها من علاقة بالمرحلة التالية التي برزَ فيها. ثم لِما للاثنتين من علاقة بصُلب البحث. نأخذ عناصرها من المصدر الأساس المذكور أعلاه. إلا حيث ننصّ على غيره. فكل ما يراه القارئ مذكوراً دونما إحالة إلى مصدره، فهو عن «الدر المنثور». إلا ما سنقتبسه عنه نصّاً.

(٦)

بدأت علاقة الشهيد الطويلة مع المعرفة في قريته جُباع، على والده علي بن أحمد. حيث قرأ عليه مدّة خمس سنوات (٩٢٠-٩٢٥ هـ/ ١٥١٤-١٥١٩م). وكان من جملة ما قرأه عليه من

---

٢١٢. «رياض العلماء» : ٣/ ٣٦٢.

كتُب الفقه «المُختصر النافع» و «شرائع الإسلام» و «اللُّمعة الدمشقيّة». والأولان لمؤلفين حليين، نسبة إلى "الحلّة". أمّا الثالث فهو آخر وأشهر كتُب سلفه وشريكه في لقب «الشهيد»، محمد بن مكّي. وكان من مُخبّآت المقدور، أن شرحه الشهيد الثاني فيما بعد شرحاً وافياً. سمّاه «الروضة البهيّة». طار صيته. وما يزال حتى اليوم من الكتُب الدراسيّة الأساسيّة التي لابد لطالب العلوم الدينيّة من دراستها.

بُعيد وفاة والده عام ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩م انتقل إلى "ميس". وفيها اشتغل على شيخها الجليل علي بن عبد العالي الميسي. قرأ عليه مدّة ثماني سنوات ونصفاً. وكان من جملة ما قرأه عليه كتاب «شرائع الإسلام» أيضاً و «الإرشاد» وأكثر «القواعد». وكلها لمؤلفين حليين.

في شهر ذي الحجّة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦م ترك شيخه الميسي، لانقطاعه وكِبر سنّه، وإرتحل إلى الكرك. وفيها قرأ على السيد حسن بن جعفر بن الأعرج. وكان ممّا قرأه عليه «القواعد الإلهيّة» في الكلام والحكمة لابن ميثم البحراني، و «التهذيب» في أصول الفقه، و «العُمدة الجليّة» في أصول الفقه أيضاً لشيخه ابن الأعرج. فهذه خمس عشرة سنة، يمكن القول إنها كانت بمنزلة الأساس ممّا بناه لنفسه على شيخين من أعرف فقهاء وطنه في زمانه.

في السنوات التاليات أظهر اهتماماً ملحوظاً بالحركة العلميّة في بلده. لم يكن ينقطع إلا حين يغادرها، في رحلات إلى مصر وبيت المقدس ودمشق. عنوانها المُعلَن الدراسة على أهل الفقه والحديث والتحمّل منهم ومن علماء القراءات والعربيّة والهيئة والحساب والهندسة والطب فيها. وقد أحصاهم عداً في مُذكراته واحداً واحداً، إلا «مَن يطول الخطب بتفصيلهم». وربما إلا مَن كانوا أدنى مكانة ممن ذكرهم. كما نصّ على ما قرأه على كل شيخ شيخ منهم. وممّا يجدر ذكره هنا، أننا بالعودة إلى تراجم أولئك الشيوخ، خصوصاً في «الكواكب السائرة» للغزّي، وجدنا أنهم جميعاً كانوا من أبرز علماء أقطارهم وفقهائها ومحدثيها. فكأنه، بل كان بالتأكيد، يعمل على مرمى آخَر، بالإضافة إلى «تحصيل ما أمكن من العلوم»، كما قال، هو أن يبني لنفسه شبكة علاقات متينة وواسعة. الأمر الذي نظن ظناً قوياً أنه يتصل بهمومه بوصفه أعلى فقهاء الشيعة في الشام شأناً، وبوصفه شيخ جُباع وراعي الحركة العلميّة فيها. ممّا يتصل بدوره بالوضع السياسي الذي اضطرب فيه، واضطرب فيه جبل عامل إجمالاً في زمانه. وسنفصّل الكلام بقدر الحاجة على هذه الإشارة فيما يلي.

(٧)

في العام ٩٢٢ هـ/١٥١٦م، أي يوم كان زين الدين في الحادية عشرة، أنهت الدولة العثمانيّة الصاعدة سلطان المماليك، بعد حكم طال ثلاثة قرون إلا قليلا. وضمّت الشام إلى حوزتها.

وقبل ذلك بسنوات أنهى الشاه إسماعيل الأول الصفوي (حكم: ٩٠٧-٩٣٠ هـ/١٥٠١-١٥٢٣ م) حكم أُمراء الطوائف في إيران وأعلن توحيدها تحت سلطانه.

كان الحدثان المتزامنان أهمّ متُغيّر سياسي منذ الغزو المغولي والحروب الصليبيّة. في هاتيك السنوات الحافلة بالأحداث الجسام، تشكّلت العناصر الأساسيّة للمسرح السياسي الإسلامي لمُدّة أربعة قرون. أي حتى ما يُسمّى بالحرب العالميّة الأُولى. لم يبقَ خارجه إلا الجزُر الإسلاميّة في شبه القارّة الهنديّة.

النهضة العامليّة انبعثت يوم كان جبل عامل تحت حكم سلاطين المماليك. والحقيقة أن هؤلاء، على سيئاتهم الكثيرة، لم يُحسنوا إلا في أمر واحد. هو أنهم تركوا أمور الثقافة لأهلها. ذلك أنهم كانوا جنوداً جاهلين، أكثرهم أمّيون، بل كان منهم مُن لا يُحسن العربيّة إلا لماماً. انحصر همّهم في حياطة مُلكهم، وحراسة امتيازات الطبقة العسكريّة التي يُمثّلونها. لا يكترثون بالثقافة وبلبالها، إلا حين تتقاطع مع شؤون حكمهم. كما حدث مع الشهيد الأول. وليس هو بالمثال النادر.

أمّا الآن، وقد دخلت المنطقة في حوزة العثمانيين، فقد تبدّل ذلك المُناخ تبدّلاً كاملاً. فالسلاطين العثمانيون الأشدّاء، قوم طووا ضلوعهم على طموحات إمبراطوريّة، حصلوا عليها الآن بالفعل. بعد فتح القسطنطينيّة والشام ومصر.

ثم إن الشعوب التركيّة عموماً حملت منذ دخولها في الإسلام لوناً مذهبياً حادّاً جداً. وهذا يعني، فيما يعني، أن خبرتها في التعامل مع المسألة المذهبيّة الشائكة، كانت محصورة ومُحاصَرة بتجربتها الوحيدة الجانب والرؤية.

بالنسبة لجبل عامل خصوصاً، فإن الاستقطاب الثُنائي بين الدولتين العثمانيّة الحنفيّة والصفويّة الشيعيّة، اكتسب بسرعة لوناً مذهبيّاً حادّاً جداً. خصوصاً على يد السلطان سليم الأول (حكم: ٩١٨-٩٢٧ هـ/١٥١٢- ١٥١٩م). الذي حظر استعمال اللغة الفارسيّة في

بلاده. وكانت من قبل لغة الثقافة والدبلوماسيّة. كما نظّم مذابح مهولة نالت الشيعة في آسية الصغرى وفي حلب [٢١٣].

ممّا هو في غير حاجة إلى بيان خاص، أن ذلك التبدّل السياسي الأساسي، لم يكن في صالح جبل عامل. وخصوصاً في صالح فقهائه ومركزه العلمي الرئيس في ذلك الأوان، أعني جُباع. وأنهم، ولا بُدّ، كانوا يرون بوضوح نُذُر ماهو آت. بل نقول، إن نهوض جُباع مركزاً علميّاً على علاقة وثيقة بالمُناخ الجديد. اتخذ شكل ارتكاس غريزي على الخطر المحسوب. بدا تجمّعاً في وسط الكثافة السكانيّة الشيعيّة. بالقياس إلى المراكز السابقة، التي كانت جميعها في الأطراف.

(٨)

أوردنا هذه الفذلكة التاريخيّة، لِما لها من علاقة بما بقي من سيرة الشهيد الثاني. وبما اضطرب فيه فيما بعد. اضطراباً انتهى إلى شهادته، التي ردّدت صداها الأقطار. وغدت بسرعة حدثاً كبيراً. من آثاره مايزال عالقاً حتى اليوم.

في وقت ما من السنة ٩٤٩هـ/١٥٤٢م، آب الشهيد إلى جُباع من رحلته العلميّة الواسعة. بعد أن توّجها بأداء مناسك الحجّ. وما إن استقر به المقام، حتى وجّه اهتمامه إلى إحياء حركة الدراسة فيها. التي يبدو أنها فقدت شيئاً من حيويّتها أثناء غيابه الطويل. بسبب ما وصفناه من مُناخ سياسي. وقد وصف تلميذه ابن العَودي أعمال شيخه في تلك الأيام بقوله:

> «وكان قدومه إلى البلاد كرحمة نازلة وغيوم هاطلة. أحيا بعلومه نفوساً أماتها الجهل. وازدحم عليه أُولو العلم والفضل. كأن أبواب العلم كانت مُغلقة ففتحها، وسوقه كانت كاسدة فربحت. وأشرقت أنواره على ظُلمة الجهالة فاستنارت. وابتهجت قلوب أهل المعارف وأضاءت [...] رتّب طُلاّبه ترتيب الرجال. وأوضح السبيل لمن طلب الكمال. وفي هذه السنة توشّح ببرود الاجتهاد. وأفاض عليه مولاه من السعادة ما أراد. إلا أنه بالغ في كتمان أمره» [٢١٤].

---

٢١٣. للتفصيل والتوثيق: كتابنا: «الهجرة العامليّة إلى إيران... / ٢٩ - ٣٥.

٢١٤. «الدر المنثور»: ٢ / ١٦٨.

فأنت ترى في هذا الكلام جُملة أمور ومعاني. على رأسها تلك الحركة العارمة التي أثارها الشهيد في جبل عامل انطلاقاً من بلدته. بعد أن خمدت أو كادت في الظروف التاريخيّة التي وصفناها. ثم مافي تلك العبارة ذات الوقع القوي «رتّب الطلاّب ترتيب الرجال». حيث نرى ابن العَودي يُصوّر شيخه، وهو يُنظّم شؤون الدراسة والدارسين، كأنه قائد عسكر يُرتّب جُنده كراديس كراديس. استعداداً لمعركة فاصلة. ثم ذلك الربط بين ما بعثه من حركة ونشاط، وبين اشتهار اجتهاده. وذلك ربط، أو ارتباط، تقليدي بالنسبة لكبار فقهاء الشيعة. الذين كان موقعهم في مجتمعهم مرهوناً دائماً بقرار شعبي. وفاق انجازاتهم العلميّة أو العمليّة، أو الاثنين معاً. على أن ها هنا إضافة أساسيّة إلى كلام ابن العَودي حول هذه النقطة، ستأتي في محلّها في ختام هذا القسم.

يعقد ابن العَودي في كتابه فصلاً خاصاً لذكر تلاميذ شيخه. ومن أسف فإن السّرد ينقطع بعد أن أحصى ستة أسماء. بسبب ما ضاع من صفحات النسخة الأصليّة، التي أخذ عنها مؤلف «الدر المنثور». هم: حسين بن عبد الصمد الجُباعي، ونور الدين بن عبد الحميد الكركي، وعلي بن زهرة الجُباعي، ومحمد بن محمد الحر المشغري، وعلي بن حسين بن أبي الحسن الجُباعي، وعلي ابن حسين الصائغ. ثم يذكر في الفصل المُخصص لمؤلفات شيخه: زين الدين الفقعاني. بمناسبة أنه كتب رسالة اسمها «سؤالات الشيخ زين الدين وأجوبتها». يُضيف إليهم الحر العاملي: أحمد ابن سليمان النباطي[٢١٥] وأحمد بن نعمة الله بن خاتون[٢١٦] وحسين بن مُشرف العيناثي[٢١٧] وعلي بن فخر الدين الهاشمي[٢١٨] ومحمد بن علي العَودي الجزيني[٢١٩] وأبو الحسن الموسوي[٢٢٠]. ويُضيف الأفندي علي بن أحمد بن أبي جامع[٢٢١].

---

٢١٥. «أمل الآمل»: / ١٣.
٢١٦. نفسه / ٤٠.
٢١٧. أيضاً / ٨٠.
٢١٨. أيضاً / ١٣٦.
٢١٩. أيضاً / ١٦٦.
٢٢٠. أيضاً / ١٩٢.
٢٢١. «رياض العلماء»: ٣/ ٣٤٥.

فهؤلاء أربعة عشر تلميذاً عرفناهم. أغلبهم من معارف أوانهم وبعده. ولقد قصدنا من تعداد أسمائهم ليس فقط ما في العديد من دلالة كميّة، بل أيضاً الإلماح إلى ما اكتسبته جُباع من صفة مركزيّة، بوصفها مركزاً علمياً، بفضل جهود شيخها الجليل. هوذا نحن نرى أن هؤلاء التلاميذ قدموا من ثلاثة مراكز علميّة سابقة، أصبحت الآن تاريخيّة: جزين وعيناثا والكرك فضلاً عمّن كان منهم من جُباع نفسها. بالإضافة إلى مشغرة. التي نراها الآن بشخص محمد بن محمد الحر المشغري. الذي سنعرفه ونعرف دوره في القسم التالي. وقد جاءت إلى الحج والناس راجعة. لا نفتقد بينهم إلا أبناء ميس. التي نعرف أنها لم تأخذ صفة مركز علمي إلا بشيء من التساهل في معنى الكلمة. فكأننا نرى جُباع الآن وهي تلُمّ شعث أسلافها. في حركة تحمل معنى الارتكاس الغريزي على الخطر.

ثم إن الشهيد ترك عشرات المُصنّفات، ما بين كتاب كبير ورسالة. أوفى إحصاء لها نجده في «أمل الآمل» [٢٢٢]. أشهرها شرحه على «اللمعة الدمشقيّة» لسلفه الشهيد الأول، وكتابه «مسالك الأفهام». وهو أوسع كتاب فقهي استدلالي لمُصنّف عاملي حتى تاريخه. وما يزال الكتابان موضع عناية حتى اليوم.

(٩)

بعد أن أمضى ثلاث سنوات في بلده، مُتفرّغاً للتصنيف والتدريس، فيما يبدو، رأيناه يخطو خطوة غير مُتوقّعة من مثله. ففي يوم الاثنين ١٧ ربيع الأول ٩٥٢ هـ/٢٨ أيار ١٥٤٥ م وصل إلى الآستانة، التي ظلّ يُسميها القسطنطينيّة. وقد بيّن بنفسه غرضه من هذه الزيارة بقوله: «الإجتماع بمَن فيها من أهل الفضائل والعلوم، والمُتعلّقين بسلطان الوقت والزمان سليمان بن عثمان» [٢٢٣]. يعني السلطان سليمان الأول، المعروف بالقانوني. والسؤال: ماا لذي دعاه إلى الشخوص إلى عاصمة الدولة، للاجتماع بمَن سمّاهم «المُتعلّقين بسلطان الوقت والزمان»، يعني حاشية السلطان ورجال دولته، وهو الذي نأى بنفسه دائماً عن السلطة ورجالها؟

٢٢٢. ١/ ٨٦ – ٨٧.

٢٢٣. «الدر المنثور»: ٢/ ١٧٠.

كل شيء يدلّ على أنه سعى من هذا السبيل إلى تأسيس نمط من العلاقات بفقهاء السلطة ورجالها. عسى أن يصل إلى تحرير موقف الدولة من عُقدتها التاريخيّة. منه بوصفه أعلى فقهاء الشيعة في الشام شأناً في زمانه. ومن جُباع بوصفها المركز العلمي الرئيس. والقارئ الحصيف يستطيع أن يربط بسهولة بين رحلته العلميّة، التي غادرنا الكلام عليها قبل قليل، وبين زيارته هذه. بحيث ينظمهما معاً في سياق. لا مِراء في أن شبكة العلاقات المتينة والواسعة التي نسجها أثناء رحلته كانت تمهيداً ذكيّاً وضرورياً لزيارة الآستانة وإلى ما رمى إليه منها.

مهما يكن، فإنه عاد من زيارته تلك، التي طالت ثلاثة أشهر ونصفاً، وبيده براءة رسميّة بمشيخة "المدرسة النوريّة" في بعلبك. وغني عن البيان أن هذه البراءة تعني، بالنسبة إليه على نحو التخصيص، اعترافاً بكفاءته العلميّة العالية. ولكنها فوق ذلك شهادة على نجاحه في اختراق الحاجز المذهبي الصّلب. الذي حكم سياسة الدولة العثمانيّة في الشؤون الإسلاميّة. وسنرى بعد قليل أن اختراق ذلك الحاجز كان دأبه وغرامه، وديناً يدين به.

في مُنتصف شهر صفر ٩٥٣ هـ/ ١٩ نيسان ١٥٤٦ م عاد إلى جُباع. وبعد استراحة قصيرة يمّم شطر بعلبك.

كانت بعلبك، التي نزلها ابن جُباع، مدينة صغيرة أو بلدة كبيرة. لكنها حاضرة منطقة شاسعة خصيبة عامرة. تمتد من الطريق التاريخي المعروف حتى اليوم باسم "طريق الشام" غرباً، إلى "وادي العاصي" شمالاً. لكنها كانت أيضاً ذات تركيبة مذهبيّة نادرة. فحتى الأمس غير البعيد جداً كانت من المراكز الحنبليّة القليلة في المنطقة الشاميّة. بيدَ أن أرباضها الواسعة وجوارها معمورة بجماعات شيعيّة كثيفة مُتنامية. انصبّت عليها قادمة من جهات مختلفة قصيّة ودانية. إذن، فقد كانت المدينة حنبليّة شيعيّة. مع نسبة غير معلومة من الشافعيّة والأحناف والمالكيّة. من هنا فقد كانت مُختبراً نموذجيّاً لأفكار عمرت نفس الشهيد منذ زمن بعيد. نعتقد أنها هي التي قادت دروبه نحو دمشق ومصر و بيت المقدس دارساً مُتحمّلاً. وقد عبّر عن هاتيك الأفكار بكامل الوضوح في حديث جرى بينه وبين الشيخ أبي الحسن، علي بن محمد البكري (ت: ٩٥٢ هـ/ ١٥٤٥م) سنة ٩٤٣ هـ/ ١٥٢٦م. وقد كان هذا أعلى شيوخ الشافعيّة في مصر شأناً في زمانه. قرأ عليه الشهيد جُملة من الكتُب. واصطحبا في طريق الحجّ. وقد سجّل ابن العَودي أن شيخه

«كان يُطري أحوال هذا الشيخ ويُثني عليه»[٢٢٤]. وقد جرت هذه المُباحثة بينهما أثناء الطريق إلى الحجاز.

قال الشهيد، مُخاطباً أبا الحسن البكري:

«ما تقولون في أمر هؤلاء العوام، الذين لا يعرفون شيئاً من الدلالات المُنجية من الهلكات. ما حكمهم عند الله سبحانه. وهل يرضى منهم هذا التقصير؟ بل ننقل الكلام إلى العلماء الأعلام والفضلاء الكرام. الذين جمد كلّ منهم على مذهب من المذاهب. ولم يدرِ ما قيل فيما عدا ذلك المذهب الذي اختاره. مع قدرته على الإطلاع والفحص وإدراك المطالب. وقنع بالتقليد للسلف. وجزم بأنهم كفوه مؤنة ذلك. ومن المعلوم أن الحق في جهة واحدة. فإن قالت إحدى الفرق، الحق في جانبنا، اعتماداً على فلان وفلان، فكذلك الأُخرى تقول. إعتماداً على مُحقّقيهم وأعيان مشايخهم. لأن ما من فرقة إلا ولها فضلاء ترجع إليهم وتقول عنهم. فالشافعيّة مثلاً يقولون، نحن الإمام الشافعي وفلان وفلان كفونا ذلك. وكذلك الحنفيّة يستندون إلى الإمام أبي حنيفة وغيره من مُحقّقي المذهب. وكذلك المالكيّة والحنابلة يستندون إلى فضلائهم ومُحقّقيهم. وكذلك الشيعة يقولون، نحن السيد المرتضى والشيخ الطوسي والخواجا نصير الدين والشيخ جمال الدين وغيرهم. بذلوا الجهد، وكفونا مؤنة التفحّص. ونحن على بصيرة من أمرنا. فكيف يكتفي مثل هؤلاء الفضلاء بالاقتصار على أحد هذه المذاهب، ولم يطّلع على حقيقة المذهب الآخَر؟ بل ولا وقف على مُصنّفات أهلها ولا عرف أسماءها. فكون الحق مع الجميع لا يُمكن. ومع البعض ترجيح من غير مُرجّح».

أجاب أبو الحسن:

«أمّا ما كان من أمر العوام، فنرجو من عفو الله أن لا يؤاخذهم بتقصيرهم. وأمّا العلماء فيكفيهم كون كل منهم مُحقّاً في الظاهر».

قال الشهيد:

«كيف يكفيهم مع ما ذكرنا من تقصيرهم في النظر وتحقيق الحال؟».

أجاب:

«ياشيخ جوابك سهل. مثال ذلك مَن وُلد مختوناً. فإنه يكفيه عن الختان الواجب شرعاً».

---

٢٢٤. «الدر المنثور»: ٢ / ١٦٣.

قال :

« هذا المختون خلقةً لا يسقط عنه الوجوب حتى يعلم أن هذا هو الختان الشرعي . بأن يسأل ويتفحّص من أهل الخبرة والمُمارسين لذلك . وأن هذا القدر الموجود خِلقةً هل هو كافٍ في الوجوب شرعاً أم لا . أمّا أنه من نفسه يقتصر على ما وجده، فهذا شرعاً لا يكفيه» .

أجاب :

« ياشيخ، ليست هذه أول قارورة كُسرت في الإسلام»[٢٢٥] .

هذا النص المُذهل النادر، وأكاد أقول الفريد، يُرينا أن الرجل كان يحمل همّاً مُقلقاً حول تقاطع المذاهب فيما بينها، وغياب التعارف والتحاور . بحيث غدت كيانات مُغلَقة . تتحرّك كلّ منها داخل دائرتها الخاصة لا تعدوها .

كانت بعلبك، بما فيها من تنوّع مذهبي، فرصة ذهبيّة لاختبار أفكاره . وبالفعل فقد رأيناه يتخذ من "المدرسة النوريّة" ، وتُعرف أيضاً بـ "الأمينيّة" ، محلاً للتدريس والإفتاء على المذاهب الخمسة . يُدرّس كل راغب، ويُفتي كل مُستفتٍ، بما يوافق مذهبه . وقد وصف بنفسه تلك الأيام بكلمات تندّ بالابتهاج والحبور . قال :

« ثم أقمنا ببعلبك . ودرّسنا فيها مُدّة في المذاهب الخمسة، وكثير من الفنون . وصاحبنا أهلها على اختلاف آرائهم أحسن صُحبة . وعاشرناهم أحسن عِشرة . وكانت أياماً ميمونة، وأوقاتاً بهجة ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها» .

يُعلّق تلميذه ابن العَودي على كلمات شيخه بقوله :

«كنتُ في خدمته في تلك الأيام . ولا أنسى وهو في أعلى مقام، ومرجع الأنام، وملاذ الخاص والعام . يُفتي كل فرقة بما يُوافق مذهبها . ويُدرّس في المذاهب كلها . وكان له في المسجد الأعظم بها درس، مُضافاً إلى ما ذُكر . وصار أهل البلد كلهم في انقياده، ومن وراء مُراده . بقلوب مُخلصة في الوداد، وبحُسن الإقبال والاعتقاد . وقام سوق العلم بها على طبق المُراد . ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد . ورقى ناموس السادة والأصحاب في الازدياد . وكانت عليهم تلك الأيام من الأعياد»[٢٢٦] .

---

٢٢٥ . «الدر المنثور» ٢ / ١٦٤ - ٦٥ .

٢٢٦ . «الدر المنثور» ٢ : / ١٨٢ .

ولا يسعنا، ونحن نقرأ تلك الكلمات، إلا أن نُسجّل إعجابنا العميق بما تحلّى به من دأب وصبر وطول أناة. وهو يجتاز طريقه الطويل في مراحله المُتعدّدة. مُعداً نفسه إعداداً دقيقاً. بحيث انتهى في بعلبك «في أعلى مقام. ومرجع الأنام. وملاذ الخاص والعام. يُفتي كل فرقة بما يُوافق مذهبها. ويُدرّس في المذاهب كلها». وهذه تجربة فريدة في تاريخنا كلّه، في حدود علمنا. وأعتقد أن القارئ يُشاركنا التأثّر البالغ للكلمات التي ختم بها وصفه لأيام بعلبك. «كانت أياماً ميمونة وأوقاتاً بهجة. ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها». لِما تنطوي عليه من براءة وعظمة وخُلوص ونُبل. وحقاً لم يرَ أصحابه ولا غير أصحابه مثل تلك الأيام الجليلة.

(١٠)

بعد زهاء السنتين في بعلبك، رأيناه يعود فجأة إلى جُباع. لا ريب أنه لم يترك ما كان فيه، وما كان له من «أيام ميمونة وأوقات بهجة» إلا لأمر قد زعزعه وسلبه طمأنينة العيش. ثم لا ريب أن ذلك يتصل بما اختطّه لنفسه من عمل يُعاكس الاتجاه العام في ذلك الزمان. ذلك الاتجاه الذي عمل بكل وسيلة على توسعة الشرخ المذهبي. أي نقيض خطّته ونهجه.

يُعلّق ابن العودي على كلمات شيخه، التي ختم بها مُذكراته، بعد أن ترك بعلبك مُباشرة بقوله: «آخر ما وجدته بخطه الشريف [...] وهذا التاريخ (يعني سنة ٩٥٥ هـ/١٥٤٨ م) خاتمة أوقات الأمان والسلامة من الحدثان. ثم نزل به ما نزل»[٢٢٧]. يُشير بقوله هذا إلى السنوات العشر الأخيرة من حياته. ممّا يخرج بنا بسط الكلام فيه عن غرضنا من هذه المراجعة لسيرته. لنقول بإيجاز، إنها كانت فترة مطاردة عنيدة من قِبَل أجهزة السلطة. أمضاها مُتخفياً، مُتنقلاً بين مختلف قرى وبلدان جبل عامل. كان الجميع فيها يتآزرون على تضليل طالبيه. وفي هذه الفترة كتب أكثر مصنفاته، التي فاقت الخمسين عداً.

في وقت ما من السنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٦م فارق وطنه قاصداً "مكة" بنيّة المجاورة إلى أن يأتيه الأجل. ربما لأنه سئم حياة التخفّي وعدم الاستقرار، وظن أنه سيكون آمناً في حرم الله الذي

---

٢٢٧. نفسه: ٢/ ١٨٢ – ٨٣.

«مَن دخله كان آمناً» [٢٢٨] . لكن أجهزة السلطة تعقّبته إلى حيث هو . وقبضت عليه في المسجد الحرام . وساقته إلى عاصمتها حيث أوردته مورد الهلاك .

(١١)

من السهل جداً التنديد بقتل الشيخ زين الدين . فهو رجل من ذلك الطراز النادر ، الذي يمنح حظّه من هذه الدنيا ، خالصاً وبكامل الاختيار والصدق ، لقضيّة سامية . أثبت أنه أهل لها علمياً وأخلاقياً . لكن الأليق بالبحث ، وبغرضنا من عرض سيرته ، أن نُحوّل الكلام إلى أثر ذلك على مسار النهضة في وطنه ، وعلى جُباع منه على وجه التخصيص . لأن الحركة الفكريّة ، من دراسة وتصنيف ، كانت قد تمركزت فيها في الربع الأخير من القرن السابق على مقتله .

ومن الغني عن البيان ، استناداً إلى ما وصفناه من مُناخ سياسي عام ، ومن اضطراب حياة شيخ جُباع ، أن أمرها قد اضطرب هي أيضاً ، وأن أحوالها قد تبدّلت ، بعد تلك الانبعاثة الواعدة على يد شيخها الجليل . بحيث بدت وكأنها ستجمع ما تشتّت من بقايا المراكز العلميّة . بل كأنها ، وقد امتلكت طاقة عجيبة ، تجذب إلى موقعها المُتوسّط الطامحين من حولها : آل الحر من مشغرة ، ابن خاتون من عيناثا ، أحمد بن سليمان النباطي من النبطيّة ، زين الدين الفقعاني من " الفقعيّة " ... الخ . لكن قتلة الشيخ زين الدين قلبت الآية وشتّت الشمل .

ليس في يدنا نص مُباشر يصف لنا ارتكاس جُباع على الجريمة المهولة . لكن آغا بُزُرك ينقل نصاً عن علي بن رضي الدين آل أبي جامع الجُباعي ، أن جدّه علي بن أحمد (ح : ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣ م) وهو «من أجلاّء تلاميذ الشهيد الثاني» [٢٢٩] «أول مَن خرج من جبل عامل من آل أبي جامع بعد شهادة الشهيد الثاني ، خوفاً من الفتن . فسكن كربلاء مدّة . ثم فرّ منها إلى دورق» [٢٣٠] . وقيمة النص هي في دلالته على فكرة مُسلّمة في ذهن صاحبه ، عن هجرة كبيرة ، نالت فقهاء من أبناء جُباع . ويقول حسين بن عبد الصمد الجُباعي ، تلميذ الشهيد المُقرّب ، ورفيق أسفاره : «وممّا

---

٢٢٨ . آل عمران / ٩٧ .

٢٢٩ . «رياض العلماء» ٣ / ٣٤٩ .

٢٣٠ . «الذريعة» : ١٤ / ٢١ .

حثّني على تأليف هذه الرسالة، بعد هربي من أهل الطغيان والنفاق... الخ.»[٢٣١]. والنصّان، خصوصاً الأول منهما، يدلاّن على أن الجريمة قد أثارت حالة ذعر حقيقيّة وشاملة. نالت فقهاء جبل عامل، وخصوصاً أبناء جُبّاع، بل أصابتهم إصابة مباشرة. بحكم ما بين الشهيد وبلده وتلاميذه من اختصاص.

ولا أدلّ على ما آل إليه أمر جُبّاع، من أن حسناً بن زين الدين (ت: ١٠١١ هـ/١٦٠٢ م) ابن الشهيد الثاني نفسه، ارتحل مع أخيه لأمّه محمد بن علي بن أبي الحسن (ت: ١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م) إلى العراق للدراسة. واشترطا على أستاذهما في النجف الأشرف أن لا يقرأا عليه سوى ما هو «دخيل في الاجتهاد»[٢٣٢]. لأنهما يريدان العودة بسرعة إلى وطنهما الذي أخذ يشكو من ندرة الفقهاء.

٢٣١. حسين بن عبد الصمد الجباعي: «الدراية» ط. النجف، لات/ ٢.

٢٣٢. عباس القمي: «الكُنى والألقاب»، ط. النجف، لات: ٢/ ٣٥٥.

مخطط الحركة العلمية في "جُباع"

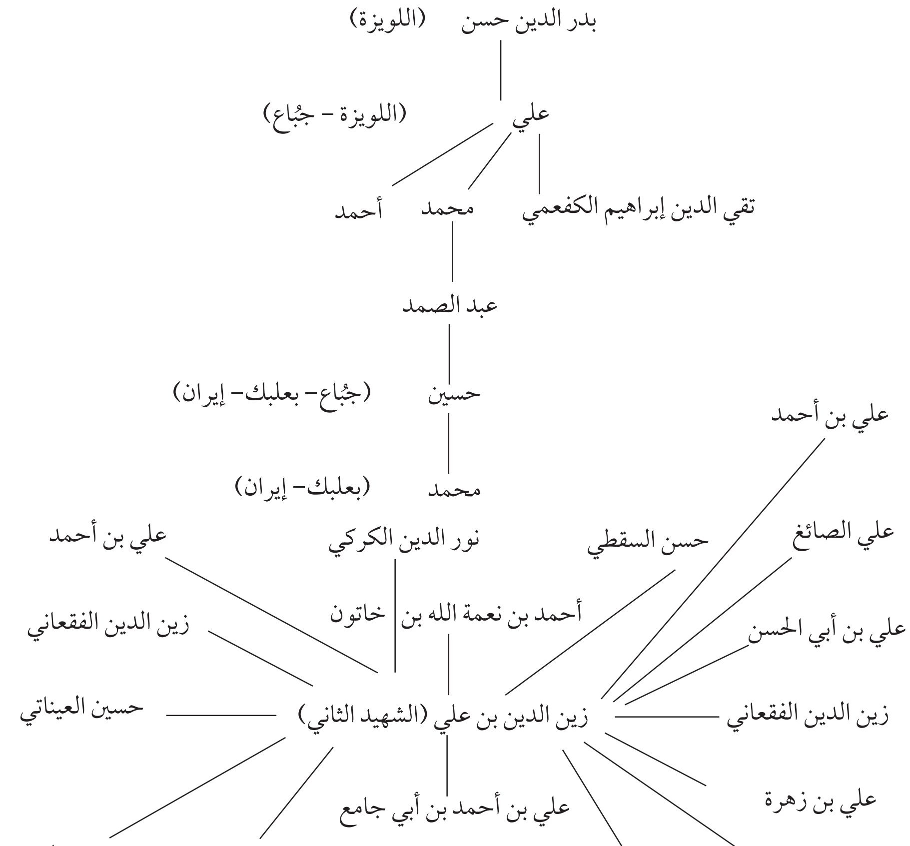

٦-مشغرة

(١)

قرية في سفح جبل لبنان. على كتف الوادي الذي شقّه نهر الليطاني بين سهل البقاع و جبل لبنان. وهي بحسب التقسيم الإداري المعمول به اليوم، من محافظة البقاع، إلى الغرب من بلدة راشيّا.

لكن السمعاني (ت: ٥٢٦ هـ/١١٦٦ م) يقول: «مشغرى، بفتح الميم، وسكون الشين المُعجمة، وفتح الغين المعجمة، والراء وفي آخرها الياء المنقوطة بإثنتين من تحتها» [٢٣٣]. أمّا ياقوت (ت: ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) فيقول: «مشغرى، بالفتح ثم السكون وغين معجمة وراء» [٢٣٤]. وكذلك الحر المشغري (ت: ١١٠٤ هـ/١٦٩٢ م) [٢٣٥]. وليس مثل هذا التبديل الطفيف في أسماء البقاع بالأمر ذي البال. أمّا نحن فقد تابعنا ما عليه الناس اليوم، تجنّباً للالتباس. ويقول فريحة إن الاسم فينيقي. يُطلق على الأمكنة التي يتدفّق منها الماء بغزارة. يقابله في العربيّة: ثغرَ. ومنه في العاميّة اللبنانيّة: شاغور، بمعنى: شلاّل الماء [٢٣٦].

بيد أن السمعاني وياقوت معاً يُضيفان، على سبيل التعريف بالقرية: «قرية من قرى دمشق». وهذه، فيما نرى، إضافة ذات مغزى يستحق التأمّل. فالقرية من وجهة نظر بلدانيّة، أو كما نقول اليوم: جغرافيّة، تبعد عن دمشق زهاء الستين كيلو متراً، أي مرحلتين وسفر يومين للمُجدّ. حسب المقاييس المُعتمَدة في زمانهما. إذن، فمن المُستبعد جداً أن هذين البلدانيين المُتمرّسين يعنيان بعبارتهما مثل ما نفهم، إذ يُطلَق الكلام، ويُراد به إحدى القرى المُطيفة بمدينة. ومع ذلك فإن من الواجب تصحيح العبارة، جرياً على قاعدة أصالة الصحّة في النص. مالم يقُم دليل على العكس. خصوصاً وأنه صدر عمّن هو بغنى عن التعريف.

---

٢٣٣. «الأنساب»: ٥/ ٣٠٥.

٢٣٤. «معجم البلدان»: ٥/ ١٣٤.

٢٣٥. «أمل الآمل»: ١/ ١٦١.

٢٣٦. «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية»/ ١٧٣.

والاحتمال الوحيد الذي يرد في البال، أنه يعكس إنطباعاً قائماً في ذهن صاحبه. قوامه ليس العلاقة الجغرافيّة، بل الثقافيّة. فنحن نعرف أن الطريق الرئيسيّة، التي تفصل سهل البقاع إلى "البقاع العزيزي" و "البقاع البعلبكي"، هي أكثر من طريق حيويّة تاريخيّة. بل هي حدود ثقافيّة. منها وغرباً، مع هامش مناسب من الجهة الشرقيّة، نفوذ دمشق الثقافي. الذي تحمله الطريق التي ما تزال تُعرف حتى اليوم بطريق الشام. حيث الشام هنا تعني دمشق. ويصل بين منطقتها والساحل، عبر "وادي التيم". وتقع مشغرة على أحد فرعي هذه الطريق. يُعزّز هذا التوجيه، أن الأعلام الذين يأتي ياقوت على ذكرهم بمناسبة الحديث عن "مشغرى" كلهم مشغري دمشقي. واحدهم أبو الجهم، أحمد بن الحسين المشغراني (ت: ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م) «أصله من بيت لهيا. تعلّم بها، ثم انتقل إلى مشغرى. قرية على سفح جبل لبنان، فصار بها إمامهم وخطيبهم». وثانيهم "القرشي المشغري الدمشقي". والثالث "علي بن الحسين بن عبد الرزّاق، أبو الحسين المشغري الدمشقي". وذلك كلّه يعكس النفوذ الثقافي القوي لدمشق على مشغرة في ذلك الأوان.

لكن الظاهر أن الطريق التي حملت من صوب دمشق ما حمل ياقوت على وصف مشغرة بتلك العبارة المُلتبسة، حملت من الجهة الأُخرى، أعني من جهة جبل عامل، حركة سُكّانيّة أدّت مع كرّ الأيام إلى تبدّل هُويتها المذهبيّة. ونحن نعرف الآن أن الصورة السكانيّة للجبل أخذت مادّتها ممّن لجؤوا إليه هرباً من ويلات الغزو الصليبي. الأمر الذي أنتج واقعاً سكانيّاً. مضى يتحرّك، تبعاً لقوانين الانتشار السكّاني. ودائماً كانت الطّرق الرئيسيّة تحمل البشر. وتكون مساراً ومُوجّهاً لانتشارهم. ومعهم، طبعاً، ثقافتهم. إذن، ففي مشغرة التقى عاملان: ثقافي قادم من دمشق، وسكّاني، وضمناً ثقافي أيضاً، قادم من جبل عامل. فهذا تفسير نراه مقبولاً لوجود القاعدة المذهبيّة المؤاتية. التي كانت المُهيِّء الأساسي لمشغرة، لتكون في مستقبل أيامها أحد مراكز النهضة، التي كانت تتفاعل في جوارها. على الرغم من أنها تاريخيّاً تقع في نطاق النفوذ الثقافي البالغ القوّة لدمشق. ويحسُن بنا أن نذكر هنا أيضاً، إنها في هذا مثل عدّة قُرى أُخريات إلى جوارها: "سُحمر"، "يُحمر"، "قِليا"، "زِليا"، "عين التينة". أعني أنها كلها تعكس النفوذ الثقافي القادم من جبل عامل على موجة الحركة السكّانيّة التي سلكت الطريق الرئيسيّة.

ولقد عرفنا ممّا فات، أن مشغرة التحقت مبُكّرة بحركة الريادة التي مهّدت للنهضة. وذلك بشخص ابنها يوسف بن حاتم المشغري، الذي كان حيّاً سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م. ويمكننا أن نرى في

ذلك أمارة واضحة على استقرار نتائج الحركة السكانيّة، القادمة إليها من غربها، في ذلك الأوان. وأن نرى فيه أيضاً دليلاً على أنها كانت في الأوان نفسه تكتنز التحفّز الثقافي الذي رصدناه من قبل في الجبل، نحو التسامي بهُويته الذاتيّة، بإنتاج المثقّف المُنتمي، أي الفقيه. وتلك عدوى مُنسجمة مع طبيعة الأمور. لوحدة المنشأ والأسباب.

لكننا رأينا مشغرة وقد عقمت من بعد ابن حاتم أمداً طويلا، يزيد على القرنين. أي حتى ظهر فيها محمد بن حسين بن محمد بن محمد بن مكّي (ح: ٩٠٣ هـ/١٤٩٨م). وهو جدّ العائلة المعروفة حتى اليوم بآل الحر. التي يعود إليها الفضل بالدرجة الأولى في منح القرية ما أهلّها للدخول دخولاً مُميّزاً في النهضة العامليّة. وما ندري علّة ذلك العقم، بعد أن أظهرت قابليّة واستعداداً.

وممّا يُكمل الملاحظة التي بدأنا بها هذا القسم، أعني العلاقة بين دمشق و مشغرة، أن أصل آل الحر يرجع إلى تلك المدينة. ومن محاسن المصادفات، وغريب تصاريف المقدور، أن مجد آل الحر بدأ بمَن اسمه محمد بن مكّي، غير الشهيد طبعاً. ومرُادي من هاتين الملاحظتين أن تكونا مفتاحاً للكلام على هذه العائلة ذات الامتياز والأثر. وأنا مُبيّن هذا الإجمال على التوّ.

(٢)

إن النص الوحيد الذي يفتح أمامنا مغاليق التاريخ المبكّر لآل الحر، ومنه استفدنا الملاحظتين أعلاه، بل والتعريف بمؤسّس العائلة في مشغرة وبسلفيه في دمشق، إجازة صدرت من علي بن عبد العالي الكركي لـ "الشيخ حسين بن الشيخ شمس الدين محمد الحر بن الشيخ شمس الدين محمد بن مكّي "[٢٣٧]. وقد وصلتنا بنصّها كاملاً. والكركي مصدر موثوق. ليس فقط لأنه عالِم خبير، يعرف أعلام بلده جيداً، بل بالإضافة إلى ذلك لأنه عرف مُجازه الشيخ حسيناً معرفة مباشرة، كما تشهد بذلك الإجازة. فإن كان ثمة شك في معرفة المُجيز، فلا سبيل إلى شك مثله في معرفة الحفيد بأبيه وجدّه.

صدرت الإجازة «بدمشق سادس عشر شهر رمضان المُعظم قدره عام ثلاث وتسعماية» / ١ أيار ١٤٩٨ م. ونحن لا نشك في أن الكركي كان في ذلك التاريخ بدمشق عابراً. ربما في بداية

٢٣٧. «بحار الأنوار» ١٠٨ / ٥٤ – ٥٧.

رحلته العلميّة الواسعة، التي سبق الكلام عليها في القسم المُخصّص للكرك. لكن كل شيء يدلّ على أن مُستجيزه كان بدمشق مُقيماً. أي أنه كان دمشقياً. وأنه لم يكن ولا أبوه ولا جدّه مشغرياً. بشهادة أن المُجيز لم ينسب أياً منهم إليها، كما تقضي بذلك العادة والتقليد. خصوصاً فيما يتعلّق باسماء المُجازين. ولكننا نلاحظ أيضاً أنه لم ينسبهم إلى بلد آخَر. وما ذلك، فيما نُخمّن، إلا لأن النسبة إلى البلد تكون ذات فائدة عندما يكون المنسوب في غيره. أمّا حين يكون في بلده فالناس في النسبة سواء، أي أنها لا تُفيد. فهاتان ملاحظتان تتقاطعان عند نقطة واحدة، هي أن الثلاثة دمشقيون. وعلى هذا فإننا نُرجّح ترجيحاً قوياً جداً أن العائلة كانت حتى حسين بن محمد تقطن دمشق. أهميّة هذه النتيجة ليست فقط من حيث علاقتها بتاريخ العائلة، بل بالدرجة الأُولى من حيث علاقتها بتاريخ انبعاث مشغرة، والتحاقها بالنهضة العامليّة. لِما أشرنا إليه أعلاه من علاقة سببيّة واستمراريّة بين انبعاثها ونهوضها مركزاً علمياً، وبين آل الحر.

ثم إن تاريخ الإجازة هو أيضاً تاريخ لحياة المُجاز. حيث يعزّ غيره. وهذا واضح. وعليه فيمكننا القول، استناداً إلى ذلك، إن والده محمد وجدّه محمد بن مكّي قد عاشا في دمشق، أثناء القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد. وهذا، بالإضافة إلى الأوصاف التي يُغدقها الكركي على المُجاز له وأبيه وجدّه، فيما اقتبسناه آنفاً، هو كل ما نعرفه عنهم. وقد اعتدنا أن نتقبّل مثل هاتيك الأوصاف حيث تصدر عن الكركي بحذرشديد. لِما نلاحظ عنده من ميل إلى منحها دون حساب. ومع ذلك فإن القدر المُتيقّن أن الأب والابن كلاهما كانا من الفقهاء، بمعنى أو غيره. أمّا الحفيد، المُجاز له، فإن حصوله على إجازة من الكركي هو بنفسه ذو دلالة بيّنة على أنه كان فقيهاً معروفاً. وممّا يجدرُ بنا ذكره، في ختام هذا التعريف، أن الحر العاملي لم يأتِ على ذكرأجداده الثلاثة إطلاقاً، حتى ولا عرضاً. الأمر الذي أثار عجب السيد الأمين [٢٣٨].

(٣)

أول مِن يذكره الحر العاملي من أسلافه في مشغرة هو جدّ والده "محمد بن الحسين الحر العاملي المشغري" [٢٣٩]. ونسبته إلى مشغرة بيّنة بحيث لا تحتاج إلى أكثر من هذا الإلفات. من

٢٣٨. «أعيان الشيعة»: ٦ / ١٣٦.

٢٣٩. «أمل الآمل» ١ / ١٥٤.

هذا، مُقارَناً بما رجّحناه أعلاه عن موطن أسلافه في دمشق نستنتج أنه أول مَن تحوّل إلى سُكنى ما أصبح فيما بعد وطن العائلة، أعني مشغرة. والمؤسّس لوضعها الجديد، بوصفها مركزاً علميّاً ذا امتياز. وجدير بالذكر، أن الترجمة المُختصرَة التي علّقها الحر له هي كل ما وقعنا عليه من شأن هذا الرائد. نقلها بنصّها عبد الله أفندي[٢٤٠]. ممّا يدلّ على أنه، وهو المعروف بالدأب والتنقيب، لم يكن عنده ما يُضيف إليها. وسها عنها قلم السيّد الأمين.

الاسم، كما حرصنا على نقله بنصّه، يشهد بأن الحر العاملي كان يعرف جدّ جدّه حسين بن محمد بن محمد بن مكّي على الأقلّ. الأمر الذي يجعل السؤال عن علّة تجاهله له يكبُر. نحن نعرف أن الحر رجل ذو مزاج. وأنه طالما تجاهل رجالاً معارف وأعلاماً كباراً عرفهم معرفة مُباشرة. وكأنه بتجاهله لهم يبتغي أن يمحوهم من الذاكرة. لكننا نعرف أيضاً أنه منح أفراد أُسرته مكاناً رحباً في كتابه. ومنهم مَن ليس له كبير شان. إن في ذلك التجاهل لسرّاً.

مهما يكن، فإن الحر يصف والد جدّه، محمد بن الحسين الحر، بأنه «كان فاضلاً عالماً فقيهاً، جليل القدر عظيم المنزلة. أفضل أهل عصره في الشرعيّات». ولسنا نعرف بالضبط متى عاش كيما نُحاكم ذلك الوصف العريض. أعني قوله «أفضل أهل عصره في الشرعيّات». ولكن إذا كان والده، المُجاز من الكركي، في سنّ النضج في السنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٨ م، كما تشهد بذلك الإجازة نفسها، ، فيمكننا أن نستنبط من ذلك بسهولة أن محمداً عاش في أواسط القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد. أي أنه مُعاصر لعلي بن عبد العالي الميسي، وعلي بن عبد العالي الكركي، وزين الدين بن علي الجُباعي. هؤلاء الكبار حقاً. والنتيجة الواضحة لهذه المُقارنة الريب بصحّة التوصيف. خصوصاً وأن قائله لا يُعزّز دعواه بذكر مُصنّفات جدّ والده أو تلاميذه، مثلاً، إن كان له مُصنّفات أو تلاميذ. باستثناء تلميذه/ ابنه عبد السلام، كما سنعرف. كما أنه لايقول شيئاً ممّا يُقال عادةً فيما يتعلّق بتاريخه العلمي. أين وعلى مَن قرأ مثلاً. والظاهر أنه لم يأخذ عن فقهاء جبل عامل. وأنه كان مُستغنياً عن الطلب عندما تحوّل إلى سُكنى مشغرة. وربما كانت قراءته الوحيدة على والده في دمشق.

---

٢٤٠. «رياض العلماء»: ٥ / ٨٦ – ٨٧.

القدر المُتيقّن الذي نخرج به من مُجمَل ما عرفناه، ومن مراجعتنا النقديّة له، أن محمداً بن الحسين الحر كان فقيهاً، وأنه كان أول فقيه من بيته نزل مشغرة. وذلك فوز عظيم بالنسبة لبحثنا. ونحن نتقصّى نشأة هذا المركز، ذي الهُويّة الفكريّة المُميّزة.

لكن ما الذي دعاه لأن يؤثر سُكنى تلك القرية أو البلدة الصغيرة، التي لا شأن لها، مشغرة، على المدينة العريقة الكبرى ومسكن أسلافه دمشق؟

نُخمّن تخميناً أن للأمر علاقة بالفتح العثماني (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م) وبما حمله من مُناخ جديد. ليس ممّا يرتاح إليه هذا الفقيه الشيعي وأمثاله. كما أنه لايملك أن يقابله إلا بأن ينفي نفسه إلى حيث يكون حضور السلطة وصبغتها أقلّ ممّا هو في المدينة المركز. ذلك أننا نعرف أن دخول العثمانيين إلى المنطقة بدأ موجة من الاضطراب في قطاع الفقهاء من غير مذهب السلطة الجديدة، أعني المذهب الحنفي. حتى إن منهم مَن سارع بإعلان تحوّله إلى المذهب المحظوظ، ليرفع بذلك من درجة حظوظه هو وحظوته. فكيف بمَن يُمثّل المذهب العدوّ، أو على الأقل مذهب العدوّ. أعني الدولة الصفويّة في إيران. التي كانت المُناجز الأكبر للعثمانيين. في ظل هذا المُناخ لن يكون من المُستغرَب أبداً أن يتحوَّل الرجل إلى تلك القرية. رغبةً في أن ينأى بنفسه عن مُضطَرَب الأحداث ومركز السلطة. وهكذا تحوّل إلى أقرب قرية شيعيّة من وطنه الأصلي. وهي التي عرفنا ما كان بينها وبين دمشق من وشيجة عميقة. وطبعاً، فإن هذا التحليل، على وجاهته، فيما يبدو لنا، لاينفي ما قد يكون من أسباب أُخرى، ممّا يدخل في حوافز الناس.

إذا صحّ ذلك، فهو يعني ضمناً، أن ذلك التحوّل الحدث، بالنسبة إلى ما ترتّب عليه من نتائج، قد حصل في وقت ما بُعيد السنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م. ثم هو يعني ثانياً أن مشغرة التحقت بالنهضة العالقة في جبل عامل بعد أن آذنت شمسها بمغيب. ومن هنا سنرى أن عمرها كان كعمر كواكب الأسحار.

(٤)

سنعمل الآن على تتبّع الحركة العلميّة القصيرة العمر في مشغرة من بعد رائدها. وذلك بالتعريف برجالها وبأعمالهم حيث يمكن.

أنجب محمد بن الحسين ثلاثة أبناء كلهم فقهاء : محمد بن محمد، وعبد السلام، وعلي. سنرى في سيرة كلّ منهم وجهاً من وجوه ما اضطربوا فيه. لكن علينا أن نلاحظ أولُ، أن الأسرة قد أقبلت في مشغرة. فبعد أن كانت، منذ جدّها الأول الذي نعرفه محمد بن مكي، لا تُنجب إلا فقيهاً واحداً في كل جيل، نراها الآن وهي تتمثّل بثلاثة من أب واحد. وهذه علامة إقبال في الأسرة. وعلامة قبول في موطنها الجديد.

أمّا محمد (ت : ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢م)[٢٤١]، فقد كان، على ما وصفه به ابن أخيه «عالماً فاضلاً مُحقّقاً مُدقّقاً. ماهراً في علوم العربيّة وغيرها. شاعراً مُنشئاً أديباً. فريد عصره في العلم والحفظ وحُسن الشعر»[٢٤٢]. ولكننا رأيناه يصفه أثناء الترجمة التي عقدهالأبيه بأنه «أفضل أهل عصره في العقليّات»[٢٤٣]. وهذا مختلف. ثم أنه، إستناداً إلى المصدر الأول، قرأ على أبيه وعلى حسن بن الشهيد الثاني (ت: ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) ومحمد بن أبي الحسن (ت : ١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م). ولكنه يقول في المصدر الثاني أنه «قرأ عند الشهيد الثاني». فكأنه يكتب عن الهوى وفق ما يحلو له، ناسياً ما كان قد قاله قبل قليل. والصحيح أنه تلميذ الشهيد الثاني. وذلك استناداً إلى ابن العَودي في (مُنية المُريد في الكشف عن أحوال الشهيد) الذي سبق لنا أن عرّفنا به وبطريقه إلينا قبل قليل. وابن العَودي عرفه معرفة شخصيّة متينة. قال : «ومنهم [يعني تلاميذ الشهيد] الشيخ الجليل والعالم الفاضل الشيخ محمد بن محمد الحر، أبقاه الله تعالى. والد زوجته المُتوفّاة بحياته في مشغرة. من أول المُذعنين باجتهاده. قرأ عليه جملة من الكـُتُب. وأخذ عنه شرائع دينه. أجازه إجازة عامّة»[٢٤٤]. ومن أسف فإن هذه الإجازة لم تصل إلينا.

لكنه يقول أيضاً، إنه قرأ على بهاء الدين العاملي (ت : ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٦م) ونحن نستغرب ذلك وأكثر. لأن هذا أصغر سناً من تلميذه المزعوم بكثير. لكن من المؤكّد أنهما التقيا، في إيران طبعاً. حيث أمضى بهاء الدين الشطر الأكبر من عمره، حتى وفاته فيها. وقد مدحه بهاء الدين

---

٢٤١. «أمل الآمل» ١ / ٦٠.

٢٤٢. نفسه / ١٧٧.

٢٤٣. أيضاً / ١٥٤.

٢٤٤. «الدر المنثور» : ٢ / ١٩١.

بقصيدتين قصيرتين في غاية العذوبة. كما أنهما تُفصحان عمّا يُكنّه له من تقدير عالٍ[٢٤٥]. فمن هنا عرفنا أنه هاجر إلى إيران، بل إنه أول المهاجرين إليها من أُسرته. والظاهر أنه توفي فيها.

ثم إن الحر العاملي يورد لعمّه أبياتاً من قصيدة طويلة، عجيبة الموضوع. يردُّ فيها على مَن يُنزّهون الشيطان عن كل قبيح. نقتبس منها هذه الأبيات، بوصفها أنموذجاً عن القليل الذي وصلنا من شعره. ثم إنها قد تكون ذات دلالة على بعض ما كانت تضطرب به بلده من غرائب الأفكار والمذاهب. وهي التي كانت، وما تزال حتى اليوم، تُبطن ميلاً عجيباً إلى جذب وقبول هذا القبيل ممّا سمّيناه «غرائب». هذا كلّه إذا تعزّزت الدلالة.

أعجب من قوم بأهوائهم لِمُقتضى عقولهم ينقضون
يوحّدون الله لكنهم بالله مَعْ توحيدهم يشركون
إذ نزّهوا الشيطان عن كل ما كان قبيحاً بئسما يحكمون
ونسبوا كل قبيح إلى رب السماوات ولا يستحون
ضلّت مساعيهم وهم يحسبون أنهم في صُنعهم يُحسنون

أخيراً، تُذكَر لمحمد ثلاثة مُصنّفات: «نظم تلخيص المفتاح». والأصل كتاب في الحساب اسمه «تلخيص المفتاح» لغياث الدين جمشيد الكاشاني. و يبدو أنه نظمه في إيران. ورسالة في الأصول وأخرى في العروض. ولم يصل إلينا أيّ منها. لكننا نعرف من العناوين على الأقل أنه كان واسع الثقافة متُعدّد الاهتمامات.

وأمّا عبد السلام، فهو تلميذ لأبيه ولأخيه الشيخ علي في مشغرة، وللحسن بن الشهيد الثاني وأخيه محمد بن أبي الحسن في جُباع. ونحن نعرف أن هذين قد عملا بكل ما في وسعهما على إنعاش الحركة العلميّة في جُباع. بعد أن قصمتها قتلة الشيخ زين الدين، وما تلاها من هجرة شبه عامّة للفقهاء. وأنهما اتخذا من جُباع مقراً لهما. وها نحن نعرف الآن أن مشغرة، بشخص ابنها عبد السلام، قد التقت مع مرامي شيخي جُباع.

والشيخ عبد السلام هو أول أساتذة الشيخ الحر. وصفه بأنه «كان ماهراً في الفقه والعربيّة. قرأتُ عليه وكان عمري عشر سنين. وكان حسن التقرير جداً، حافظاً للنّكت والمسائل. كُفّ بصره وهو في عشر الثمانين، فحفظ القرآن في ذلك الوقت. ثم عمّر حتى جاوز التسعين»[٢٤٦].

٢٤٥. «أمل الآمل»: ١/ ١٦٠.

٢٤٦. «أمل الآمل»: ١/ ١٠٧.

فمن مُقارنة تاريخ ولادة الحر (وُلد : ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣م) بعمره إبّان دراسته على عمّ والده هذا، نعرف أن عبد السلام كان مشغولاً بالتدريس في مشغرة سنة ١٠٤٣ هـ/ ١٦٣٣م. أي أن الحركة العلميّة الضئيلة التي عرفتها مشغرة كانت عالقة في ذلك التاريخ. والظاهر أن عبد السلام عاش بعدها مدّة غير قصيرة. بشهادة أن تلميذه النجيب، أعني الحر العاملي، رثاه بقصيدتين طويلتين، تدلاّن على أنه كان عندما نظمهما رجلاً مُكتمل الرجولة سنّاً ومعرفة[٢٤٧].

له رسالة سمّاها «إرشاد المُنصف البصير إلى طريق الجمع بين أخبار التقصير»، ورسالة في المُفطرات، وثالثة في الجمعة[٢٤٨]. جميعها مفقودة. والرسائل كلّها في موضوعات فقهيّة.

ثالث الإخوة علي ترجم له حفيده بثلاثة أسطر وكلمات عامّة[٢٤٩]، لا يبقى منها بعد التمعّن كبير معنى. ممّا نفهم منه أنه لم يكن في مثل مقام أخويه. ومع ذلك فإن له قيمة خاصة بالنسبة لبحثنا. ذلك أنه الوحيد الذي استمرّت العائلة بخلفه. أو، بالأحرى، مَن نعرفه منهم. وقد أنجب ثلاثة بنين: حسين وحسن ومحمد.

أمّا حسين فهو ثاني المهاجرين إلى إيران «سافر إلى أصفهان، وأسكنه شيخنا البهائي [يعني بهاء الدين العاملي] في داره. وكان يقرأ عنده حتى مات شيخنا البهائي. ومات بعده بمدّة يسيرة»[٢٥٠]. ونُلفت إلى أن في هذا تفصيلات نادرة جداً عن نمط حياة المهاجرين العامليين إلى إيران.

وأمّا حسن، والد مُصنّف «أمل الآمل»، فقد هاجر هو الآخر إلى إيران. أنجب أربعة بنين: محمد وزين العابدين. لحقا بأبيهما إلى مهجره. وأحمد وعلي عاشا وتوفيا في مشغرة.

ثالث الإخوة محمد بن علي، هو الذي تحوّل إلى سُكنى جُباع. حيث ماتزال العائلة حتى اليوم. وهو أول مَن قال فيه ابن أخيه "المشغري الجُباعي"[٢٥١]. والوصف نفسه قاله في ابنه حسن، وفي حفيده أحمد[٢٥٢]. ممّا يدل على أن محمداً بن علي قد تحوّل إلى جُباع مع عائلته. وعنه تسلسل

٢٤٧. نفسه/ ١٠٨ - ١٠٩.
٢٤٨. أيضاً.
٢٤٩. أيضاً: ١/ ١٢٩.
٢٥٠. أيضاً: ١/ ٧٨.
٢٥١. «أمل الآمل»: ١/ ١٧٠.
٢٥٢. نفسه ٦٧ و٣٢ على التوالي.

كل مَن نعرفهم منها حتى اليوم. ولمن يرغب في تتبّع حركة العائلة بين مختلف البقاع، خصوصاً خارج فترة البحث، مراجعة مُشجّرة العائلة التي ذيّلنا بها هذا القسم.

ولسنا نجد سبباً لتحوّل العائلة عن مشغرة، بعد أن اتخذتها منزلاً زهاء القرن ونصف القرن، إلا السبب نفسه الذي زعزع استقرارها في وطنها الجديد. ومن الأمارات القويّة على ذلك، أن نرى أبناء محمد بن الحسين الثلاثة: محمد وعلي وعبد السلام مُتباعدي القبور جداً. الأول في إيران، الثاني في النجف، الثالث في مشغرة. ممّا يمكن أن نستنبط منه بسهولة، أن ما جعلها تترك دمشق ساعية إلى الأمن وقسط من الحريّة، بعيداً عن مركز السلطة، قد لحق بها إلى وطنها الجديد. فاضطر أبناءها إلى النزوح إلى إيران أو العراق أو إلى مركز الكثافة السكانية الشيعيّة في الوسط، حيث جُباع.

هوذا نحن نرى أن هاهنا تطابقاً كاملاً بين تاريخ مشغرة، بوصفها مركزاً علميّاً، وبين تاريخ آل الحر. وليس ممّا يأخذ من هذه الحقيقة الساطعة، أننا نعرف فقيهين مشغريين، من الفترة التي نخصّها بالدراسة، من غيرهم. هما: محمد بن علي بن شمال المشغري (ح: ٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤ م). وهو من أساتذة إبراهيم بن علي الكفعمي (ت: ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م). ترجم له الحر باختصار[٢٥٣]. ونجم الدين بن أحمد التراكيشي (ح: ٩٢٤ هـ/ ١٤٩٤ م). ترجم له أيضاً[٢٥٤]. وهو تلميذ لعلي بن أحمد بن الحجّة، والد الشهيد الثاني. ذلك أن صعود القرية ثم هبوطها السريع ارتبط بآل الحر. نزلوها بشخص ابنها محمد بن الحسين بن محمد، فبدأت تتخذ طريقها باتجاه أن تكون حاضرة علميّة. ثم هجروها بشخص محمد بن علي بن محمد، آخر مَن قطنها من بيته، فتركوها كأن لم تغنَ بالأمس.

(٥)

ذلك الترابط المادّي بين البلدة والعائلة، حمل معه ترابطاً آخَر فكرياً. منح مشغرة معنى وصبِغة المدرسة، بالمعنى الفكري للكلمة. امتدّ تأثيره حيثما حلّ أبناء العائلة، بعد أن اختلفت دروبهم وتعدّدت منازلهم. ذلك أن أعلامها كانوا، دون غيرهم من رجالات المراكز العلميّة في جبل عامل، أخباريين.

---

٢٥٣. أيضاً: ١/ ١٦١.

٢٥٤. نفسه/ ١٨٠.

والأخباريون، نسبةً إلى الخبر، جمع خبر، أي الحديث الشريف، مدرسة فقهيّة إماميّة. يُقابلها: الأُصوليّون. نسبةً إلى علم الأُصول. أعني أُصول الفقه. وقد يُقال: المجتهدون، نسبة إلى الاجتهاد فيه. ومنشأ هذه التسمية أن نقطة الافتراق بين المدرستين، هي في قول الأخباريين: إن الفقه ليس شيئاً غير الأخبار. أي الأحاديث الواردة عن المعصومين. ما من فقيه سواهم. والناس جميعاً من بعد مُقلّدون لهم. ليس عليهم إلا أن يستخرجوا الأحكام بأنفسهم من كتُب الصّحاح. كما كان يفعل مَن كانوا يتلقّونها عن الأئمّة مُباشرةً. و «الأخبار» هي الحُجّة الوحيدة في حقّ الناس. أي أنه ما من حُجيّة لافي القرآن ولا في العقل ولا في الإجماع. كما يذهب إليه الأصوليّون. تلك هي نقطة الافتراق الرئيسيّة. وإن أوصلها أحد كبارهم إلى اثنين وثلاثين فرقاً[٢٥٥]. لكن الحقيقة أن ما عرضه البحراني، على دقّته وشموله، هو ما يتحصّل من وجهة نظره هو في مختلف القضايا. وليس ذلك بالتأكيد موضع إجماع بين الأخباريين. بل إننا لنجد من الأصوليّين مَن يشاركونه الرأي حول الكثير منها. وبكلمة أُخرى، إن الفاصل بين المدرستين لم يكن أبداً خطاً مستقيماً. منه ويساراً، مثلاً، الأخباريون. ومنه ويميناً الأصوليون. بل خطاً متُعرّجاً. تختلف عناصره ما بين أصولي بعينه وأخباري مثله. والبحث طويل ومُعقّد. وأعتقد أن فيما عرضناه ما يقوم بحاجة القارئ.

والمعروف أن آل الحر جميعاً أخباريون. بمَن فيهم آخر اثنين منهم عرفناهم شخصياً معرفة مُباشرة. والأمر يستحق التساؤل عن مبدئه. خصوصاً وأننا نعرف أنهم حالة فريدة في جبل عامل. بل في المنطقة الشاميّة كلها. السؤال الذي يبده المتأمّل: من أين وعمّن اقتبسوا ذلك النهج، الذي ثبتوا عليه قروناً طوالاً، لم يُغيّروا، ولم يُبدّلوا؟؟ يصعب الجواب على نحو التأكيد. لأننا لانعرف ما يُذكَر عن أبناء العائلة قبل نزول مشغرة. وقد رأينا أننا لولا إجازة الكركي لجدّهم حسين بن محمد الحر لَما عرفناه، ولا عرفنا أباه أصلاً. بل إننا لنشك في أن الصيغة التي طرحنا بها السؤال صحيحة. فهل هم حقاً قد اقتبسوا نهجهم هذا اقتباساً؟ أم أنه كان ثمرة تطوّر داخلي؟ نُرجّح الاحتمال الثاني. لا لإننا نملك عليه دليلاً. بل، بكل بساطة، لأننا لانملك دليلاً على الاحتمال الأول.

---

٢٥٥. يوسف بن أحمد البحراني: «الحدائق الناضرة»، ط. النجف لات: ١ / ٤ وما بعدها.

والقارئ على خبُر الآن بالعلاقة المتينة التي شدّت جبل عامل، بمختلف مراكزه وأعلامه، إلى الحلّة. علاقة سببيّة يُمثّلها أعلامه الذين قصدوها للدراسة. ومنهم عامّة الروّاد قبل النهضة وأثناءها. وعلاقة فكريّة نراها أوضح مانراها في النهج العقلي الاجتهادي في الفقه. وهو النهج الذي حملت لواءه عالياً في ذلك الأوان مدرسة الحلّة. لكننا عرفنا أن لانبعاث مشغرة قصّة مختلفة تماماً. لم تُحقّق فيها ولا أثناءها أدنى اتصال بمدرسة الحلّة. وما من اثنين يفترقان في أول الطريق، إلا وكان الأرجح أن يصلا إلى موقعين مختلفين في نهايته. هذا تحليل، وربما تفسير، عام جداً. ينظر إلى الإفتراق وعدم الاتفاق. أمّا لماذا النهج الأخباري بالذات. فهذا سؤال يقتضي معرفة كافية بالهُويّة الفكريّة التي حملها آل الحر من وطنهم الأصلي دمشق. وهذا ما لا نعرفه، ومطلب لا مطمع لنا في الوصول إليه. ذلك أنه ينتمي إلى الجانب غير المرئي، وربما الضائع، من التاريخ الثقافي للتشيّع الشامي، من قبل النهضة في جبل عامل.

مهما يكن، فإن مشغرة تبدو لنا الآن، في هذا النتاج الذي أنتجته، قد اتخذت لنفسها مساراً مُعاكساً لذلك الذي اختطّه التشيّع لنفسه منذ الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٨-٤١٣ هـ/ ٩٤٩-١٠٢٢ م) وبلغ مُستقرّه من بعده في الحلّة على يد المُحقّق الحلّي، جعفر بن الحسن (٦٠٢-٦٧٢ هـ/ ١٢٠٥-١٢٧٣م) ثم ابن أُخته العلاّمة الحلّي، الحسن بن يوسف بن المُطهّر (٦٤٨-٧٢٦ هـ/ ١٢٥٠-١٣٢٥ م). وسيحمل المهاجرون المشغريون الاتجاه الأخباري معهم إلى إيران. وسيُصبح محمد بن الحسن الحر العاملي (١٠٣٣-١١٠٤ هـ/ ١٦٢٣-١٦٩٢ م) المؤسّس الحقيقي للحركة الأخباريّة بشكلها الجديد. وهو نفسه مُصنّف «أمل الآمل». وفي سبيل تقديم أفكاره صنّف كتابه الشهير «وسائل الشيعة لتحصيل مسائل الشريعة». وهو اسم واضح المغزى. ونذكر أيضاً مهاجراً مشغرياً آخَر، هو الحسين بن الحسن المشغري. الذي وصفه عبد الله أفندي بـ «رئيس المُحدّثين [= الأخباريين] في عصره»[٢٥٦]. ممّا يدل على أن النهج الأخباري كان صبِغة أعلام مشغرة عموما. وليس هذا محل الخوض في تطور الحركة الأخبارية من بعد. لكننا نشير الى ما بلغته من شأو في القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد قبل أن يعود النهج الأصولي الرسمي فيهضمها مرة أخرى.

٢٥٦. «رياض العلماء»: ٢/ ٤٣.

آل الحر في دمشق ومشغرة وجباع وإيران والعراق

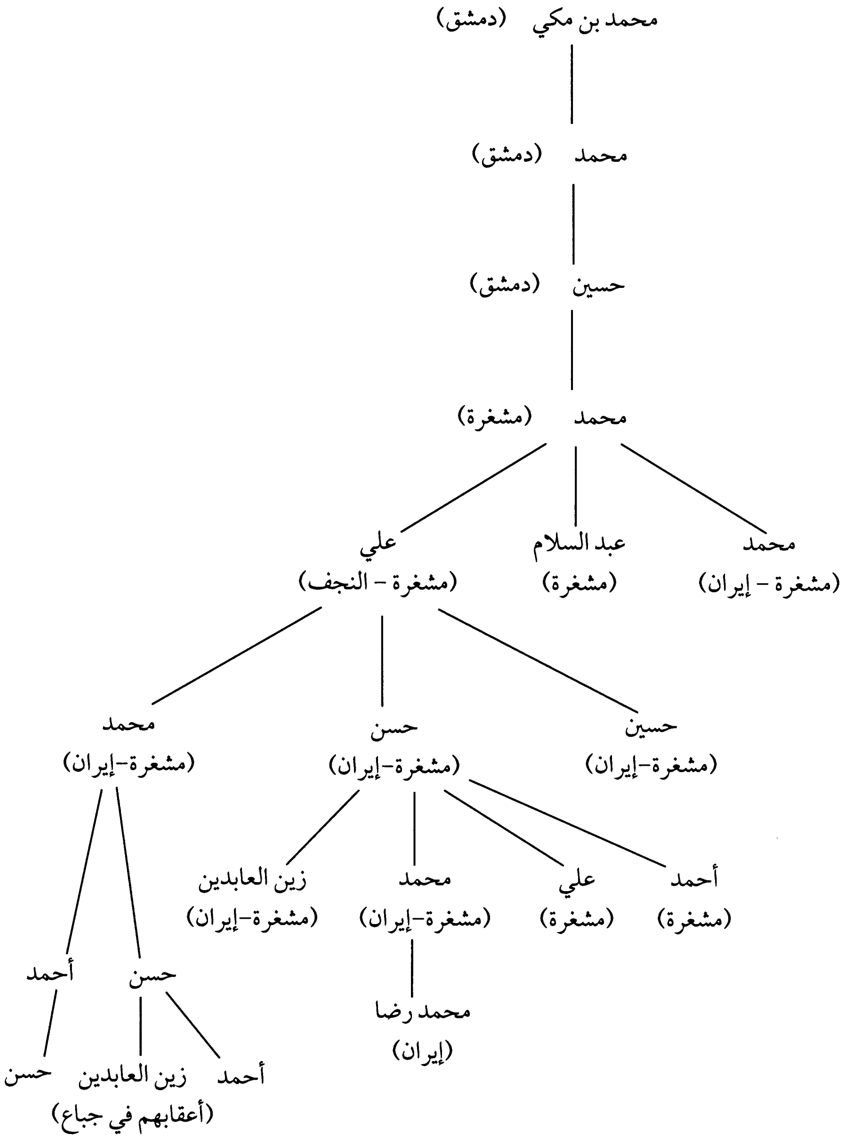

زبدة الفصل

(١)

عرفنا من ختام الفصل السابق، أن المرمى والغاية من الأقسام الستة التي فرغنا منها، هو أن نقص ّقصّة النهضة في جبل عامل الثقافي بين الشهيدين. الأول، محمد بن مكّي الجزيني، بوصفه بانيها. والثاني، زين الدين بن علي الجُباعي، بوصفه آخر كبارها، ومَن كان مقتله الفاجع العلّة المباشرة لانفراطها. وذلك عن طريق التعريف بالمراكز العلميّة التي قامت فيه مركزاً مركزاً. يتناول ظروف نشأته ورجاله وأعمالهم وإنتاجهم حيثما أمكن.

لكن هذا المنهج، على حسناته الواضحة، جزّأ القصة إلى عدّة قصص. أمّا حسناته فأبرزها أنه أتاح لنا أن نستفيد من ما تحت اليد من مصادر للمعلومات. أهمّها على الإطلاق نصوص الإجازات. وهي مصادر كانت حتى هذا بكراً لم تُمسّ. ثم مافي كُتُب السيّر والتراجم والطبقات. من «أمل الآمل» و «رياض العلماء» و «روضات الجنّات» و «أعيان الشيعة». وهي مصادر معروفة. ولكنها، هي الأُخرى، لم تُستخدَم في بناء تصورّ متُكامل لمثل ما سعينا إليه في هذا البحث. الأمر الذي أتاح لنا أن نُحقّق قسماً جيداً من غايتنا. لكنه من الجهة الأخرى، مثل كل تحليل، أرجع الموضوع المدروس إلى عناصره الأوليّة. وبذلك أفقد البحث صفته الكُليّة. فحرمنا من رؤية الحركة الكُليّة وآليّتها. وهي التي كانت تلك المراكز، في نشأتها وصعودها وهبوطها، كما في أبطالها، التعبير المادي عنها. وما من منهج كامل. وما سرنا عليه كان ضرورة لا غنى عنها ولا ما يسدّ مسدّها. كما أن كل منهج يمكن ملء ثغراته هو منهج مقبول. إذن، فلنعتبر ما أنجزناه حتى الآن عملاً تعريفيّاً. وهذه، على كل حال، خطوة كبيرة وغير مسبوقة. ولنتُبعه بآخر تركيبي، نتناول عناصره من ذاك.

وأول ما ينبغي علينا أن نلاحظه، أن نهضة جبل عامل كانت ثمرة سياق طويل. مهّد له روّادها جنودها المجهولون. دون أن يروا ثمارها. ثم بدأها مَن عرفناهم من مؤسّسي مراكز العلم فيه. محمد بن مكي في جزّين، وجعفر بن الحسام في عيناثا، وابن العشرة الكسرواني في الكرك،

وعلي بن عبد العالي الميسي في ميس، ومحمد بن علي الجُباعي في جُباع، ومحمد بن الحسين الحر في مشغرة.

ذلك أمر قلناه، ويجب أن يكون الآن في منتهى الوضوح. وما نُذكّر به إلا توسّلاً إلى أمر آخَر، نراه منه بسبب وثيق. هو أن ذلك السياق كان سياقاً حراً: لم يكن وفقاً لخطّة، ولا مقوداً بإرادة أو هوى سلطة. بل كان وليد حاجة عامّة وحقيقيّة. حاجة شعب عانى من أقصى حالات الاستلاب، إلى استعادة هويته بعد سني الاحتلال الطويلة، التي امتدّت آثارها إلى ما بعده بزمان. مثلما تمتد آثار المرض في جسم مُنهك ألى ما بعد الشفاء بزمن طويل. وما أولئك الروّاد والمؤسّسون إلا حملة أمانة شعبهم ومؤدوها كاملة غير منقوصة.

دائماً كانت هناك علاقة ما بين السلطة وحركة المعرفة. قوامها غالباً عمل السلطة على أن تكون المعرفة في اتجاهها على الأقل. إن لم تكن ويكن أهلها في خدمتها ومن ضمن مشروعها للحكم. أمّا هنا، في الحالة المعرفيّة التي أنتجها جبل عامل، فالأمر مختلف.

باستثناء علاقة الشهيد ابن مكّي بدمشق، وعلاقة الشهيد زين الدين الجُباعي العابرة بعاصمة الدولة العثماتنيّة، فإننا لم نُسجّل أي شكل من أشكال التواصل بين جبل عامل والسلطة المركزيّة، خلال زهاء القرنين من عمر النهضة. وما من شك في أن مبادرات الشهيدين في هذا النطاق كانت نوعاً من حكم الضرورة ومُقدّر بقدرها.

والحقيقة التي ينبغي التذكير بها أيضاً، لعلاقتها الصميمة بما نحن فيه، أن فرصة جبل عامل في بناء ذاته لم تسنح له إلا لأن السلطة المملوكيّة، التي كان في نطاق حكمها آنذاك، كانت أبعد ما يكون عن الشأن الثقافي وبلباله. وذلك بسبب التركيز الكامل على التربية العسكريّة الصارمة، التي كانت تتلقاها عناصرها في فترة إعدادهم الطويلة. بحيث جعلت منهم جنوداً جاهلين، غُرباء تماماً عن الهموم الثقافيّة التي كانت تعمل في المجتمع خارج أسوار ثكناتهم وقصورهم. هذا، فضلاً عن غربتهم الأساسيّة، بوصفهم في الأصل عبيداً أرقّاء مجلوبين من مختلف الأقطار والأمصار. الأمر الذي التقى مع النفور الشيعي التقليدي من ذوي السلطة، ما لم يكونوا من مفهومهم للشرعيّة. وأتاح له أن يُعبّر عن نفسه تعبيراً فصيحاً ومأمون العواقب. وغني عن الذكر أن أمراً كهذا ما كان ليحصل في ظل سلطة كالسلطة العثمانيّة مثلاً.

بالنسبة للسلطة المحليّة الإقطاعيّة، فليس في يدنا، ولا في يد غيرنا، معلومات عن علاقة أُمرائها وشيوخها بالفقهاء. لكن هذا بنفسه قد يقوم دليلاً على غيابها غياباً كاملاً. أي أن عدم الوجدان هنا دليل على عدم الوجود. ذلك أننا لم نجد في كل ما سُجّل من سِير أولئك الفقهاء ذكراً لقصيدة مثلاً، نظمها أحدهم في مديح أحد رجال السلطة. أو لكتاب قدّم له مُصنّفه بما يُفهم منه أنه خدم به أحدهم. وما إلى ذلك. وعلى كل حال، فإن أولئك الإقطاعيين لم يكونوا في موقع معنوي ذي أثر في مقابل الفقهاء. بل كان أكبر همّهم جباية الضرائب لتسديد بدل الالتزام للسلطة المركزيّة، مع فائض مناسب يقوم بنفقاتهم الشخصيّة. ومن المؤكد أنهم تقبّلوا برضى ظاهر، على الأقل، تصاعد نفوذ أولئك الفقهاء. الذين بسطوا سلطانهم على قطاع الثقافة بأكمله. ورعوا الشؤون الدينيّة لشعبهم. بما فيه فضّ الخصومات وفقاً لحكم الشرع. وغني عن البيان أنه، في ظلّ هذا التوزيع للمواقع، فإن الفقيه كان في موقع مُتقدّم كثيراً وأكثر عضويّة بالقياس إلى رجل السياسة المحلّي.

ومع ذلك، فقد كان من أهم إنجازات المراكز العلميّة الستة، أعني ما عدا مشغرة، وأبعدها أثراً، تأسيسها ورعايتها على المستوى الفكري، لِما عُرف فيما بعد باسم "ولاية الفقيه". ولا خُلف في ذلك. ولا تعارض أبداً بين صدوفها عن كل أشكال التواصل مع كل أشكال السلطة القائمة فعلاً، وبين عملها على بناء شرعيتها الخاصة بها. بل هي في عملها هذا تبدو في كامل الانسجام مع مشروعها الأساسي. وهو استعادة هُويتها. الذي من تمامه أن يكون لها مفهومها الخاص للشرعيّة. المُندمج في عالمها الفكري. من دونه ستكون منقوصة نقصاً أساسيّاً. ولن يُجدي في هذا إطلاقاً أن تُقدّم، مثلاً، مشروعاً توفيقياً، يُلائم بين ما هو سلطة بالفعل. وبين ما هو على مستوى المفهوم. على نحو مادرجت عليه مذاهب إسلاميّة. إذ اتخذت من كل سابقة تاريخيّة دليلاً وسبباً كافياً للقول بشرعيّة مضمونها. وبذلك اجتمع لديها مخزون ضخم من السوابق، وبالتالي من صنوف الشرعيّة، مضت تغرف منه كيف تشاء وفقاً للحاجة والوضع الراهن. ذلك أنها إذ تركن إلى مثل ما ركن إليه غيرها تكون مُلغية لذاتيّتها وخصوصيتها. ومُنضوية تحت مشروع سلطوي صرِف. لا أساس له في العقيدة السياسيّة. فضلاً عن أنه ظالم بأكثر من معنى. وذلك ما أباه الفكر السياسي الشيعي دائماً.

(٢)

ممّا يتصل بهذا السياق الحر وينتهي إليه، تلك التلقائيّة المُدهشة التي كانت تنهض أو تنشأ بها المراكز العلميّة، فصعودها ثم انطفاؤها. فلقد عرف القارئ ممّا فات من هذا الفصل، أنه كان يكفي أن ينجُب في إحدى قُرى جبل عامل فقيه مشهود له بالفضل وجودة النظر، حتى يتقاطر إليه الطلاب والمُستزيدون علماً من مختلف الأنحاء. منهم مَن شخَص من بلد قصي على بُعد الشقّة. وقد وقفنا فيما فات على أمثال. وبتلك البساطة كان ينشأ وضع أكاديمي، فيه درس ومُدرسون ودارسون ومُصنّفون ومُصنّفات. في قلبه ولُبّه دائماً ذلك الشيخ الفاضل.

لكن النقص في تلك الصيغة البسيطة والفعّالة، على ما فيها من حيويّة وتلقائيّة وبساطة، كان في افتقارها إلى الصفة المؤسّسيّة. المُؤهّل وحده لأن يمنحها صفة الشخصيّة المعنويّة. المُتحرّرة من الارتهان. وبسبب من هذا النقص، كان استمرارها مرهوناً بحياة شيخها وقدرته على العمل. حتى إذا مات أو انقطع انهارت وتفرّق الطلاب. ونموذج "ميس" وشيخها علي بن عبد العالي الميسي خير مثال.

لكن الحيويّة والتلقائيّة نفسها كانت، من الجهة الأُخرى، تُقدّم دائماً البدائل. فخلال زهاء القرنين من عمر النهضة كان هناك دائماً مركز عامل على الأقل، من تلك المراكز الآخذ بعضها برقاب بعض. بحيث إن الطلاب لم يَعدموا الوسيلة لمتابعة تحصيلهم العلمي دونما كبير صعوبة. كل ما كان عليهم أن يفعلوه هو أن يتحوّلوا من مركز إلى آخَر. ومن هنا رأينا من أبناء النهضة ورموزها مَن تلقّى في غير مكان. مثل ابن المؤذن الجزيني، الذي درج في عيناثا، ثم استكمل في الكرك. ومثل الشهيد الثاني، زين الدين بن علي الجُباعي، الذي درج في جُباع، ثم تابع في ميس فالكرك. والأمثلة المُشابهة كثيرة.

ثم إننا نجد من المراكز ما استمرّ عاملاً مُنتجاً زمناً من بعد شيخه المؤسّس. وشرط ذلك أن يُقيّض له مُن يحمل المؤهّلات الكافية، بحيث يستمر على الوتيرة نفسها. مثلما حدث في جزين من بعد الشهيد ابن مكّي. وبذلك منحوا وطنهم أن يواصل السير على النهج الذي سنّه شيخهم الكبير رائد النهضة. ونحن نخال أن العلّة في نجاة الفرصة التي مثّلتها الرائدة جزين من الانهيار، أنها تلقّت الجَرعة المُرّة بقتل شيخها على مراحل. ولم تنزل الضربة على أُم رأسها بكامل ثقلها نُزول ضربة قاضية. ذلك أن حبسه سنة كاملة في دمشق أبقى الأمل حيّاً بنجاته من المحنة. ويبدو أنه أثناء

ذلك ظلّت جزين على نشاطها. فاستمرّت في عملها الإعدادي دون عناء. وغني عن البيان أن أمراً كهذا ماكان له أن يحصل لو لم يكن من تلاميذ الشهيد مَن بلغ المرتبة التي تؤهله لقيادة الركب الذي فقد قائده.

أمّا سقوط جُباع بعد وبسبب مقتل شيخها زين الدين بن علي، ساحبة وراءها مُجمل الحركة العلميّة في جبل عامل، فقد حدث في ظروف ومُلابسات أُخرى مُغايرة تماماً. وعلى الرغم من وجود ثُلّة غير قليلة من أفاضل الفقهاء فيها من تلاميذ الشهيد. أبرزها، أعني تلك الملابسات، أن وقع الجريمة المهولة قد نزل بقوم هم بالفعل مُنهكون نفسيّاً. بسبب التهديد المُقيم، الذي حمله الحكم العثماني معه. ولم يتركهم ينسونه يوماً. ومن ذلك أننا نعرف أن قتل الشيخ زين الدين قد حصل بعد سنوات من الترصّد والمُطاردة تحت نظر الجميع. ومن الواضح أن هذا وحده كان كافياً بأن يترك عامّة فقهاء جبل عامل في حالة من الكرب والقلق والترقّب لا مزيد عليها.

(٣)

ممّا ينبغي أن نُلفت إليه النظر، ونحن نُركّب الملاحظات والمعلومات المُتفرّقة في دراستنا عن المراكز العلميّة العامليّة، ذلك التطوّر، أو الاختلاف بالمستوى، في علاقة جبل عامل بالمذاهب الأُخرى وأهلها. لِما لذلك من أهميّة بذاته، بوصفه حدثاً مُميّزاً يخترق الأسوار المذهبيّة العالية. في وقت بدا وكأنها قد أصبحت بُنى نهائيّة مُغلقة. ثم لأنه مطلّ ممتاز على جانب غير منظور من الهُويّة الفكريّة العامليّة. أظن أنه لن يُرى إلا عن طريق تتبّعه فيما نعرفه من سلوك أعلامه، وفيما وصلنا من أفكارهم، في هذا النطاق.

ولقد عرفنا من السيرة التي علّقناها لبطل النهضة ابن مكّي، أنه بعد أن قضى إربه من الحلّة خطا خطوة غير مسبوقة كما أنها غير مُتوقّعة من مثله. وذلك إذ بدأ رحلة علميّة واسعة. قادته إلى بغداد ودمشق والخليل والقاهرة ومكّة والمدينة، دارسا مُتحمّلاً. ولقد ظلّ يُنوّه في الإجازات الكثيرة التي منحها من بعد بما حصّله في رحلته هذه. ممّا يشهد بأنه كان يرى فيه جزءاً ذا اعتبار أساسي في تاريخه العلمي.

ممّا لا ريب فيه أن ابن مكّي، في خطوته تلك، لم يكن مَسوقاً بضرورة، من عُرف أكاديمي، مثلاً، يُحتّم عليه أويستحسن منه ما فعل. بحيث أنه لو لم يفعل لأُخذعليه. أو لاعتُبر نقصاً أو

خللاً في مقامه العلمي. بل نراه مسوقاً بقناعة داخليّة غالبة. تتراوح بين الشوق العلمي الشخصي البحت. وبين الضرورة المنهجيّة القاضية باستقراء تام لكافة التيّارات والمناهج والنصوص والآراء. وهذه كلها، خصوصاً الأخيرين منها، مُقدمة لا تصح الفتوى عند أهل الفقه من دونها. ولكن الروح المذهبيّة الغالبة ألغت هذه القاعدة عملياً، بأن حصرت هذا المبدأ السليم بداخلها. مثلما حصرت الحق فيما انتهت إليه واستقرّت عليه. بحيث غدت ضرورة الاستقراء التام ضرورة صِرف مذهبيّة. أي أن كل ما هو خارج المذهب خارج الضرورة. وكأنه محكوم سلفاً بالبُطلان. لكن الرجل لم يترك لنا من أسف ما يساعد على جلاء هذه المسألة عنده. كما فعل خلَفه زين الدين الجُباعي. ممّا سنقف عليه وعلى دلالته ومغزاه بعد قليل.

لذلك فإن علينا أن نُذكّر بأننا، ونحن نُركّب حوافزه، التي نظن أنها كانت الظهير المُناسب لأعماله في مختلف الميادين، قد قلنا بعلاقة ما بين ما حاق بالشيعة في المنطقة، وبين مُجمل ما خرج به على قومه من فكر وعمل. وفي رأس ذلك نكبة كسروان وتداعياتها. ممّا بسطنا الكلام فيه في السيرة العملانيّة التي علّقناها له آنفاً. نُذكّر بهذا لِما له من علاقة بما نعالجه. أي بتقويم خطوته يوم شدّ الرحال نحو تلك المراكز العلميّة غير الشيعيّة.

ومقتضى الحال، والارتكاس الانفعالي الغريزي، أن تكون تلك النوازل القاسية سبباً كافياً لانفصال وجداني. يُبعده وأمثاله عن الأكثريّة غير الشيعيّة في المنطقة. مع العلم بأنه لم يصدر عنها وعن رجالاتها، خصوصا عن فقهائها وأهل الرأي فيها، أدنى صوت يستنكر القسوة البالغة. التي وصلت إلى حدّ التقتيل والتحريق العشوائي، الذي نال فيمن نال النساء والأطفال. كل ذلك تحت راية الجهاد. وهو ممّا يحرم في دار الحرب، فكيف في دار الإسلام. اللهم إلا تلك الرسالة اليتيمة التي سطرها السلطان المملوكي إلى ابن تيميّة مُستنكراً مُندّداً، وهو آخر مَن يُتوقّع منه ذلك، بوجود الفقهاء وأهل الرأي. ومع ذلك فقد رأينا ابن مكّي يفعل ما فعل. مُتنقّلاً بين هاتيك الحواضر، وكأن شيئاً لم يكن. بل ويكون بالفعل. أعني تداعيات النكبة المُتلاحقة. التي كانت عالقة في أيامه.

مغزى ذلك ودلالته، فيما نرى، أن حافزه إلى الاتصال بهاتيك الحواضر كان أقوى عنده من مُقتضى ذلك الارتكاس. يعني أنه يتصل بضرورة أو مبدأ أو منهج لا سبيل له إلى مُغالبته.

مهما يكن، فإن الشهيد ابن مكّي ارتاد للناس من بعده طريقاً فسلكوه. والسالكون كانوا أعرف مَن جاء بعده من فقهاء جبل عامل وأبعدهم صيتاً وأبلغهم أثراً. وقد وقفنا على رحلة حسين بن عبد الصمد الجُباعي. وإن كنا لم نرَ فيها غير مولع بالأسفار. ربما لنقص المعلومات. ثم من بعدها رحلة علي بن عبد العالي الكركي. التي كانت علميّة ولا ريب... لكن الذي بيّن لنا بأجلى بيان النظريّة الحافز إلى الضرورة المنهجيّة الحتم للتواصل والتعارف بين المذاهب وفقهائها هو الشيخ زين الدين بن علي الجُباعي. في محاولته الآنفة الذكر مع كبير فقهاء الشافعيّة في زمانه، أبي الحسن، علي بن محمد البكري.

والحقيقة أن ما جاء به هنا هو إضافة أصيلة على كل الفكر الفقهي الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه. غير مسبوقة ولا ملحوقة. أدخلت الاطلاع على مختلف الاجتهادات في صُلب عمليّة الاجتهاد. بحيث إن الفقيه لا يخرج من عُهدة التكليف إلا بالاستقراء التام غير المحصور بمذهبه. وبهذا يغدو الانفتاح التام ضرورة منهجيّة. تتجاوز على مستوى المفهوم المواقف الأخلاقيّة الشخصيّة. وبهذا أيضاً تعود المذاهب إلى مُنطلقاتها الأصليّة، بوصفها مدارس فكريّة، وثمرة للبحث والتأمل. كان ينبغي أن تحافظ على هُويتها، وأن تستمر حالة بحث وتأمل. مع ما يقتضيه ذلك من انفتاح على المُخالف، واحترام لحق الخلاف. لولا عوامل من خارجها. انتهت بها إلى الانغلاق التام. ليس هذا محلّ بسط الكلام عليها.

والمُتمعّن في ذلك المسار المُمتد على زُهاء القرنين من الزمان، بوسعه أن يرى بكامل الوضوح خطاً تطورياً متُصاعداً. بدأ مع رائد النهضة ابن مكّي بادرة شخصيّة، مهما يكن ظهيرها. وانتهى مع خاتمتها زين الدين بن علي الجُباعي قانون عمل ومنهج بحث واستنباط مُلزِم. ممّا يُبيح لنا أن نقول، إن جبل عامل كان ينهد في زمان نُضجه إلى غير ما بدأ عليه. فلقد عرفنا أن مُنطلقاته كانت ذاتيّة. ما حفزتها غير الرغبة الغالبة في توكيد الذات الجامعة، والتسامي بالهُويّة الثقافيّة الخاصّة. لكننا رأيناها تُبطن، حتى وهي في حالتها هذه، ميلاً غير خفي إلى الانفتاح على الآخَر. بشهادة ذلك الإصرار المُتمادي على الاتصال الشخصي المعرفي، وإن يكن من جانب واحد. ثم رأيناه يتحوّل على يد الجُباعي إلى ماهو أكثر بكثير من الانفتاح. بحيث يُصبح النصّان، نصّ المؤالف ونصّ المخالف، نصّاً واحداً. وهذا إلى التوحّد أقرب منه بكثير إلى الانفتاح. والعارف بالمذاهب الإسلاميّة وعوالمها الفكريّة، ليعرف جيّداً أن هذا النمط من التفكير فريد في تاريخ هاتيك المذاهب.

لكن قتلة الشيخ زين الدين، تلك القتلة الخرقاء، قطعت ذلك المسار. بل وعكست اتجاهه. وولّدت حالة من الانغلاق التام عند فقهاء جبل عامل من بعده. وقد عبّر عن هذا التيّار القوي حفيد الشيخ زين الدين نفسه، زين الدين بن محمد بن زين الدين (ت: ١٠٦٤ هـ/ ١٦٥٣ م). «الذي كان يتعجّب من جدّه الشهيد الثاني ومن الشهيد الأول في كثرة قراءاتهم على علماء العامّة. ومن كثرة تتبّع كُتُبهم في الفقه والحديث والأصولين وقراءتها عندهم. وكان يُنكر عليهم ويقول، قد ترتّب على ذلك ما ترتّب. عفا الله عنهم»[٢٥٧].

(٤)

كما أن ممّا ينبغي أن نُوجّه النظر إليه في السياق نفسه، التأثير البالغ لمدينة الحلّة على النهضة العامليّة عموماً. ممّا يجب أن يكون القارئ الحصيف قد اجتمعت لديه مُلاحظات كافية لأن تُهيئه لما سنقول.

ولقد كانت الحلّة في أوان النهضة المركز العلمي الشيعي الأول. ومن هنا فقد كان من المفهوم أن تكون المَعين الذي استمدّ جبل عامل منه أسباب نهوضه. رأينا ذلك في رحلة مَن ارتحل إليها من أبنائه طلباً للعلم، من روّاد النهضة. ورأينا ذلك فيما وقفنا عليه من أسماء الكُتُب التي كانت موضع عناية ودراسة في مختلف مراكزه. وطبعاً كان لهذه الصلة المتينة أثرها المُناسب على اللون الفكري الذي اصطبغت به النهضة العامليّة. وطبعاً أيضاً كان لها أثرها المُماثل على المردود الاجتماعي والسياسي لذلك اللون. ولذلك فإن من المفيد أن نُعرّف بهُويتها الفكريّة، وبما يتصل بذلك من تاريخ.

ولقد بدأ مجد الحلّة بفقيه كبير، ما يزال حتى اليوم ممّن يؤخَذ عنه ويُرجَع إلى ما صنّف. لِما يمتاز به من أصالة وعُمق وجودة نظر. ذلك هو محمد بن إدريس الحلّي (ت: ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١م). وهو مؤسّس المنهج العقلي الأُصولي وحامل لوائه. في مقابل المنهج الذي يغلب عليه النقل، الذي مثّله من قبله الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م).

ثم كان من حظّ المدينة، أنها نجت من الدمار الذي أنزله التتار بالعراق سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م. وكان ذلك بمثابة باب عريض أُشرع على أعلى الحظوظ. ومُذ ذاك، ولأمد غير قصير من بعدُ،

---

٢٥٧. «أمل الآمل»: ١/ ٩٣.

غدت المركز العلمي الأول، بل الوحيد، للشيعة خصوصاً في العراق وما والاه. وتوالت على المدينة حظوظها السعيدة برجال أفذاذ، تابعوا على نهج ابن إدريس. أعرفهم جعفر بن الحسن (ت: ٦٧١ هـ/ ١٢٧٢ م) ويحيى بن سعيد (ت: ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م). وقد أصبحت الكُتُب الأصوليّة التي صنّفها الأول والثالث منهم محور البحث في الحوزات العلميّة، أثناء القرون الثامن والتاسع والعاشر للهجرة/ الرابع والخامس والسادس عشر للميلاد. أمّا كتاب «السرائر» لابن إدريس، فما يزال حتى اليوم ممّا لايستغني عنه فقيه.

في زمان يحيى بن سعيد، بلغت المدينة أعلى شأو لها في كل تاريخها. وإليه يُنسَب الفضل في تحوّل السلطان الإيلخاني أولجايتو محمد خُدا بنده، محمد أرغون بن هولاكو، إلى التشيّع. وصار مكيناً عند السلطان [٢٥٨] يعني خدابند نفسه.

والحق أننا إذا أردنا أن نضع الحلّة موضعها في سياق مُجمَل الحركة الفكريّة المُتطوّرة عند الشيعة، لجاز لنا القول، إنه في هذه المدرسة وُضعت الأسس للخط الأصولي العقلي في الفقه. ومُذ ذاك انفتحت صفحة جديدة في كتاب الفكر الشيعي. الذي يحتلّ الفقه موضع القلب منه. وكان لذلك من الثمرات على غير صعيد ما لايقع تحت حصر. وغني عن البيان، أن تتبّعه يخرج عن غرضنا من إيراد هذه الخلاصة.

ممّا لا ريب فيه أن المنحى الفكري، ذي السمة العقليّة الاجتهاديّة، الذي اختطّته الحلّة لنفسها قد تغلغل في المراكز العلميّة العامليّة، باستثناء مشغرة طبعاً. إلى درجة أننا يمكن إن نرى فيها مُجرّد امتداد لها. ثم رشح منها إلى الثقافة الأوسع للجماهير. يبدو ذلك للمتأمّل، في أنها اتخذت من اجتهاد الفقيه مصدراً لنص جديد، أكثر علاقة بسلوكها اليومي من كافة النصوص الدينيّة، من قرآن وسُنّة. هو النص الفقهي الاجتهادي. لكن ممّا لاريب فيه أيضاً أن هذا التغلغل لم يكن سكونياً. أي أنه لم يقف عند الحدود التي وقفت عندها مدرسة الحلّة. يمكننا أن نرى ذلك في النمط العملاني الذي أوصل إليه الشهيد ابن مكّي ما أصبح يُعرَف فيما بعد بـ "ولاية الفقيه". ممّا نقرأ أصوله لدى الفقيه الحلّي الكبير ابن إدريس[٢٥٩]. ولكن الشهيد أوصل الأطروحة إلى ما

---

٢٥٨. جعفر خصباك: «العراق في العهد المغولي الإيلخاني»، ط. بغداد ١٩٦٨. مقالتنا «مكانة عالم الدين في إيران، قراءة تاريخية» في فصليّة «شؤون الأوسط»، الصادرة عن مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق في بيروت/ صيف ٢٠٠١.

٢٥٩. «السرائر»/ ٥٤٥، مثلاً.

يتجاوز بكثير ما نجده عند ابن إدريس مُجرّد موقف نظري ناقص، نعرف أنه لم يُعمل به بحال[٢٦٠]. يبدو ذلك في الوضع التنظيمي الفاعل الذي ابتدعه الشهيد. ووضعه فوراً في خدمة مرام سياسيّة وغير سياسيّة. بما في ذلك نظام الجباية والصّرف. ممّا عالجناه فيما فات تحت عنوان «السيرة الفكريّة والعملانيّة» للشهيد. ثم في ذلك التماهي شبه التّام للمراكز العلميّة العامليّة ورجالها مع فكره. بحيث أصبح مع الوقت صبغة الناس، وجزءاً من الثقافة الشعبيّة لأوسع الجماهير. وأنتج نهضة، وصيغة اجتماعيّة، وشكلاً من أشكال السلطة المعنويّة للفقيه.

وممّا يدلّ على العُمق الذي وصل إليه مُجمل هذه الصيغة في الثقافة الشعبيّة، في خواتيم حقبة البحث، إشارة ترِد عرضاً مرتين عند ابن العَودي، الذي عرفناه كاتب سيرة الشهيد الثاني. يصِف فيها انتشار خبر اجتهاد شيخه بين الناس، بما يُودع في نفس القارئ حالة من الاستبشار العام، وكأنه حدث ذو قيمة خاصّة يهمّ الجميع[٢٦١].

من السهولة بمكان أن يجد المتأمّل الصلة بين هذا وبين ما وصل إليه حال جبل عامل في ذلك الأوان. نتيجة الانقلاب في الموقف الثقافي العام الذي جاء به العثمانيّون. وما يُشبه الانهيار للمراكز العلميّة العامليّة، أو بالأحرى، ما بقي منها. ممّا القارئ الآن على خبُر به. فكأن الناس رأوا في بلوغ الشيخ زين الدين رُتبة الاجتهاد شيئاً من أمجاد بلدهم الغابرة. فقابلوه بذلك الاستبشار. في حين يجب أن يكون العثمانيّون قد رأوا فيه ما لا يُحبّون ولا يرتاحون إليه. ولذلك فإن الشيخ «كان في أول أمره [يعني اجتهاده] يُبالغ في كتمان أمره»[٢٦٢]. أمّاهو فلم يرَ فيه إلا إعمالاً لمفهومه الخاص للاجتهاد. ممّا بسطنا القول فيه قبل قليل. بحيث أنه لم يدّعِ الرتبة لنفسه إلا بعد أن عاد من رحلته العلميّة الواسعة. التي تحدثنا عنها فيما علّقناه آنفاً على جُباع. حيث استفرغ الوسع في معرفة فقه كل المذاهب الحيّة. وهذا عنده شرط من شروط الاجتهاد.

من حق امرئ وعى قلبه جيدا معنى ومغزى هذا المنحى الجديد، الذي بدأه الشهيد بنفسه، على صعيد الفكر، وعلى صعيد السلوك الشخصي، أن يتساءل: ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تُقصَم نهضة جبل عامل، ولو لم يُقتل الشهيد؟ ماذا كان يمكن أن يحدث على صعيد صورة

٢٦٠. مقالتنا «مكانة عالم الدين في إيران» في فصليّة «شؤون الأوسط» صيف ٢٠٠١ / ٥٢ – ٥٣.
٢٦١. راجع الصفحة / ٢١١.
٢٦٢. «الدر المنثور»: ٢ / ١٨٣.

المذاهب عند نفسها وعند أهلها؟ وماذا كان يمكن أن يحدث على صعيد علاقات المذاهب بعضها مع بعض؟

من السذاجة بمكان أن نتصورّ أن هذا الذي يُشبه الثورة على كل التطورّ الداخلي، الذي بدأته المذاهب منذ قرون، كان سيأخذ حجم ومعنى حدث انقلابي. فنحن نعرف جيداً أن الحدود بين المذاهب محروسة بدقّة وحزم. وأن اختراقاً كهذا، مهما يكن وجيهاً ومُسوّغاً لن يُسمَح له بأن يمرّ. ومع ذلك فإن المبادرة تبقى سمة فارقة من سمات النهضة العامليّة. وثمرة للسياق الحر الذي قاد خطاها في مختلف الميادين.

الخاتمة

(١)

إن أقصى ما يسعى إليه كل مُصنّف ومؤلف ومنتهى أمله، هو أن يفي لقارئه بما وعده به في عنوان كتابه، وسوّغه في مقدمته. ومع ذلك فإن المصنّف نفسه، الذي بذل كل وسعه في إتقان عمله، لا يملك الحق بأن يقضي فيما عمله بقضاء. فيُدلي بحكم، يقول فيه كم كان مجيداً في أدائه. هو ذا حق محصور بالناقد. نعم وبالقارئ أيضاً. بقدر ما هو جدير بأن يأخذ صفة الناقد.

ستوجّه هذه الخاتمة اهتمامها إلى بيان أين، من بين المُشكلات التي عالجها البحث، نجح الباحث، من وجهة نظره طبعاً، فيما عمل وسعى إليه. وأين حالت أسباب بعينها دون ما يتمنّى. على أن ذلك لا يتعارض مع وظيفة الناقد وحقّه. لأن مُراجعة الباحث ستدور على مُعطيات المصادر. أمّا عمل الناقد فإنه ينصبّ على صحة المنهج وجودة المعالجة وحُسن فهم النص وفصاحة الصياغة، وما إلى ذلك. والفائدة من هذا، فضلاً عن ما تتوخّاه الخاتمة عموماً، هو أن تُبيّن مواطن الكشف والتجديد في البحث. كما تُبين الأسباب التي حالت بين الباحث وبين ما سعى إليه. عسى أن يقع غيرنا على ما لم نقع عليه من مصادر.

إن الوعد الذي التزمنا به مع القارئ، هو أن نقّص عليه قصّة القرنين من حياة جبل عامل، اللذين كان إبّانهما موضعاً لنهضة في الحياة العقليّة بمختلف و جوهها. يعرفها إجمالاً القاصي والدّاني. ووُضعت عليها وعلى رجالها عشرات المُصنّفات. عملت كلها على التعريف بها وبرجالها. لكن ما من أحد قال لماذا وكيف نشأت واستمرت. والتزامنا هو أن نُجيب على هذا السؤال.

ولقد بينّا في المقدمة، أن السؤال ينحلّ إلى أسئلة خمسة. كلٌ منها مشكلة مستقلّة بذاتها. كما أن معالجة كلٍّ منها، يتقدّم بالقارئ خطوة إلى الأمام، نحو تصورّ يغدو أوضح فأوضح جواباً على السؤال الرئيس. هكذا تقوم بين عناصر البحث علاقة ذات اتجاهين: طرديّة من السؤال الرئيس باتجاه توليد الأسئلة التفصيليّة. وعكسيّة من هذه باتجاه الجواب على كل سؤال سؤال.

(٢)

كان علينا بدءاً أن نعالج مشكلة تسيل في البحث كلّه. لأنها تتعلّق بميدانه. يعني مفهوم «جبل عامل». ذلك أننا لاحظنا أنه مفهوم ملتبس جداً عند مَن تعامل معه من أهل التاريخ والسِّيَر.

ولقد استعنّا في مُعالجة هذه المُشكلة بالمصادر التاريخيّة والبلدانيّة وبنصوص الإجازات. التي كشفت لنا علّة ذلك الالتباس. كما بيّنت لنا السبيل إلى الخروج منه. فالمفهوم، أعني مفهوم «جبل عامل» بدأ سُكانيّاً، ثم تحوّل إداريّاً، ليستقرّ في نهاية المطاف ثقافياً. وفي كل مرّة كان يأخذ حجماً مختلفاً. وذلك أمر لم يُلاحظه أحد من الباحثين الكثُر، الذين اعتنوا بشيء ممّا اعتنينا به هنا. وعليه فقد أدرنا البحث على المفهوم الثالث. أولاً لأنه الذي استقرّ عليه الاسم «عاملي»، وضمناً المُسمّى «جبل عامل». ثم لأنه المُناسب لموضوع البحث ومنهجه.

(٣)

كانت الخطوة التالية أن نبدأ تركيب الآليّات التاريخيّة التي هيّأت قاعدة النهضة. قاعدة موضوعيّة، من جهة، وأُخرى نفس اجتماعيّة، من جهة ثانية.

نعني بالقاعدة الموضوعيّة تشكُّل جبل عامل سُكانياً. الذي حقّقنا، من مُقارنات مؤكّدة، أنه كان عرَضاً من أعراض البعثرة السّكانيّة، التي حصلت بسبب الاجتياح الصليبي لفلسطين والأُردنّ وساحل جبل عامل نفسه. من حيث قامت حركة سُكانيّة هائلة، اتجهت نحو الجبل، مثلما يحدث غالباً في ظروف مُشابهة، وأدّت إلى عُمرانه. وما من شك أنه لولا ذلك، لَما كان هناك أدنى احتمال لقيام النهضة فيما بعد.

أمّا القاعدة النفس اجتماعيّة، فنعني بها جُملة الحوافز السلوكيّة، ذات الصفة الجَمعيّة، ذات العلاقة بمُبادرات النخبة باتجاه التأسيس للنهضة وإعلائها. وذات العلاقة باحتضانها وتقبّل نتائجها الثقافيّة من قِبل الناس.

هذه القاعدة هي أيضاً من آثار الاحتلال الصليبي، لكن لجبل عامل هذه المرّة. ذلك أن الاحتلال الاستيطاني، على الطريقة الصليبيّة التي وصفناها، كان تحدّياً حضارياً بالغ الأثر. لِما رافقه من استلاب كامل لأبناء الجبل وتعطيل لذاتهم الثقافيّة. كان الردّ الطبيعي والصحّي عليه

قيام النهضة. التي كان من أهم نتائجها، على الصعيد الثقافي، إعادة دمج الناس بالجسم الثقافي الكبير الذي ينتمون إليه.

في هذا الفصل سيقع القارئ العارف المُطّلع على أكثر من إضافة أساسيّة إلى كل ما كُتب من قبل على تاريخ جبل عامل على كثرته.

(٤)

في الفصل الثالث بدأنا ولوج عالَم النهضة. لكننا بذلك غادرنا نعيم المعلومات الغنيّة نسبياً. حيث تتوفّر النصوص المناسبة. بحيث يُمكن للباحث أن يُركّب منها ما يزعم أنه حلّ للمشكلات التي يُعالجها. ومن ثمّ دخلنا عالَماً من الأسرار المُعقّدة. من صفاته أنه لا يبوح عن نفسه إلا بمقدار. وسيكون على الباحث منذ الآن أن يملأ الفراغات الواسعة. بل وأن يمنح المعنى لِما بين يديه من معلومات قليلة، ممّا يملك من معرفة بمواصفات الفترة. ومن علاقة بين حَدَث أو علَم بعينه بالمسار الذي يتتبّع حركته. إن السبب في ذلك الشّح ليس غياب المؤرّخ، وإن كان غائباً بالفعل، بل بالدرجة الأُولى أن حدثاً تغييريّاً بحجم نهضة لا ينبجس هكذا دفعة واحدة. وهو عندما يبدأ بالتراكم يكون حجمه أدنى بكثير من مستوى المراقبة والتقويم. ثم إنه عندما يتتامّ ويأخذ حجمه ومعناه، وبالتالي تُطرَح الأسئلة عن علّة وظرف حصوله، غالباً ما تكون خطوات نشأته الأُولى قد غدت نسياً منسيّاً. والحقيقة التي أشرنا إليها دائماً، أنه لولا نصوص الإجازات لكان من المستحيل أن نهُمّ بالبحث، فضلاً عن الاستمرار فيه.

ولكن ... بقدر ماكانت نصوص الإجازات ذات فضل عميم على هذا البحث، فإنها حاصرته ضمن نمطها وعالَمها. بحيث فرضت علينا، مثلاً، أن ندرس إرهاصات النهضة، بل والنهضة نفسها فيما بعد، من خلال رجالها وأعمالهم حيث توفّرت. لقد كان أولئك الرجال التعبير الوحيد الباقي عن حركة أكبر منهم بكثير. ومع ذلك فقد اضطررنا اضطراراً لأن نقنع بما تعطينا إياه سِيرهم. جرياً على قاعدة (لا يُترك الميسور بالمعسور) ولذلك فقد أولينا العناية هنا لكتابة سِيرة أوسع ما يكون لكلّ من أولئك الروّاد الأوائل. ثم قفّينا على السِير الفرديّة بما سمّيناه «سيرة السِير». حيث عملنا على تركيب الظواهر والنماذج الشخصيّة المُتعلّقة بكل واحد منهم. بحيث نرى المُساهمات في سياق الحركة باتجاه النهضة.

لذلك فإننا على شبه اليقين من أن الصورة، التي استخرجناها من نصوص الإجازات، هي قاصرة عن توصيف الواقع بأكمله. هل إن الإجازات زوّدتنا بأسماء كل مَن يستحقّون اسم الروّاد؟ قطعاً لا! والدليل على ذلك أُنموذج ابن أبي الغيث البُخاري. وهو أحد أكثر الروّاد أهميّة. ومع ذلك فإننا لم نعثر له على أدنى ذكر في كل المصادر الشيعيّة. ولولا علاقته الحميمة بالمؤرّخ الصفدي، لَما كان عندنا أدنى فرصة لمعرفة ما يُذكَر عنه. ثم، هل إن الإجازات نفسها تمنحنا صورة صادقة، إذا أخذنا في معنى الصدق قول الحقيقة كاملة، عن الحياة العقليّة في جبل عامل، حتى بدايات القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد؟ أيضاً، قطعاً لا! والدليل أُنموذج أسد الدين الصائغ الجزيني. الذي تدلّ معارفه على وجود مصادر محليّة للإعداد العلمي ليست ممّا تُعنى به نصوص الإجازات.

ومع ذلك فإن القارئ يقف في هذا الفصل على أكثر من إضافة أساسيّة إلى كل ماهو معروف ومتُداول من التاريخ الثقافي لجبل عامل ومن ذلك أول عاملي ارتاد الرحلة إلى الحلّة. حيث المركز العلمي الأكثر أهميّة يومذاك للشيعة الإماميّة. وأول مُصنّف. وأول مَن أنشأ حركة تدريس مُستقلّة. وأول شاعر عاملي وصلنا شيء من شعره. وأول مَن بلغ مرتبة الاجتهاد. وإذا نحن إعتبرنا أولئك الروّاد الأوائل بمثابة عناوين، فإننا سنرى أنها تطابق المُعنوَن، الذي هو النهضة نفسها. التي ستبلغ أشدّها بعد حين.

ثم إن انبعاث النهضة كان بنفسه حَدَثاً نموذجياً، له ظروفه وشروطه ومواصفاته وأبطاله. فكأن التراكمات التي حصلت أثناء قرنين من أعمال ومساهمات مَن عرفناهم من الروّاد كان بمثابة عمليّة شحن بطيئة في انتظار البطل. الذي سيتولّى إفراغ الشحنة / المكنون، ويبدأ الخطوات العمليّة للنهضة.

(٥)

إن تخصيص فصل برأسه لبطل النهضة، محمد بن مكّي الجزيني، لم يكن الغرض منه، كما بينّا في المقدمة، مُجرّد التنويه به وبدوره. بل رمى إلى بيان المُزاوجة الناجحة بين فكره وأعماله، وبين ارتفاع مُستوى التحدّي، الذي يرجع أساساً إلى الاحتلال الصليبي الطويل. ثم تصاعد وغدا تحدّي وجود، بتأثير السياسة المملوكيّة العنيفة تجاه الشيعة في غرب الشام. ومن

هنا راوح مضمون الفصل الرابع بين وصف سلسلة الأحداث التي بدأت باجتياح كسروان. ثم تداعيات ذلك الحدث ذي الأثر الكبير والمُستمر في تاريخ المنطقة. وبين السيرة الشخصيّة، خصوصاً العملانيّة، للبطل ابن مكّي. وأعتقد أننا قدّمنا صورة وافية بتلك الحركة في وجهيها. خصوصاً حين كشفنا سراً كان مكتوماً من أسرار الثقافة الخاصة التي ينتمي إليها جبل عامل. هي بدايات تأسيس مفهومها الخاص للسلطة والشرعيّة. عُرِفت فيما بعد باسم "ولاية الفقيه". أعتقد أن القارئ الحصيف ليس بحاجة إلى كثير بيان، ليرى العلاقة بين ذلك التأسيس ومُعاناة الخطر الوشيك، وبين التأسيس نفسه وانطلاق وتصاعد النهضة.

(٦)

كانت البُغية من وراء ذلك التجوال أن نصل إلى ذروة البحث، آخر فصول الكتاب وأوسعها، مُزوّدين برؤية واضحة للعوامل المُحرّكة خلف ذلك الحدث الساطع. أعني النهضة نفسها.

وكما قدّمنا من قبل، فإننا عمدنا إلى دراسة النهضة مُتخذين من مراكزها عناوين / أقسام. ومن خلال ذلك نفذنا إلى رجالها. والحقيقة أن ذلك لم يكن خياراً، بقدر ما كان إمكانيّة فذّة، نظراً إلى المعلومات المُتوفّرة. نُشير مرّة أُخرى إلى نصوص الإجازات، وإلى فضلها العميم. وفي الوقت نفسه إلى مُحاصرتها للبحث ضمن نمطها ومادتها.

هنا نسأل: هل وفى البحث بكامل وعده للقارئ؟ الجواب من حق الناقد. ولكن بناءً على وعدي للقارئ في بداية هذه الخاتمة، بأن أقول له، من وجهة نظري، أين نجحت، أو أين أنا راضٍ عن نتيجة السعي. أجيب بلا قاطعة. إن المحور الذي دار عليه البحث في هذا الفصل، هو وصف الحركة التي كانت عالقة داخل مراكزها وبين رجالها. وذلك أمر مطلوب ولا ريب، ولابديل عنه، وما من منهج أخر يسدّ مسدّه. ولكن ... هل هذه هي النهضة حقاً؟ أعتقد أن هاهنا محوراً آخر مفقوداً. هو التفاعل الذي لابد أنه كان عالقاً بين المراكز ورجالها وبين الناس. ذلك أن الكلام يدور على نهضة في إطار الثقافة الخاصة، الجامعة بين أعلى أهل العلم شأناً وبين الناس العاديين. أي أنه لا يمكن أن نتصوّر انفصامها. وهي التي حافظت على هُويتها والتزامها مدّة زهاء القرنين تحت الاحتلال. ولا شك أن تحوّلها إلى ثقافة نُخبويّة يعني عزلتها وبالتالي انفصامها. يمكننا أن نرى أثر ذلك المحور المفقود، إذا نحن قرأنا التاريخ بطريقة ارتجاعيّة، يعني

من الحاضر إلى الماضي. إذ ذاك سنرى النهضة العامّة في جبل عامل. ومن هنا قلنا «لا بد...». لكننا من أسف عاجزون عن قراءة ذلك المحور الأساسي قراءة مُباشرة.

هو ذاك النصف الفارغ من الكأس. أمّا فيما يخصّ النصف المليء منه، فيمكننا القول: إن القارئ الذي وعى قلبه مُهيّئات النهضة وإرهاصاتها، التي سخّرنا لوصفها الفصول الثلاثة الأُولى من الكتاب، يمكنه أن يرى بكامل الوضوح حركة النهضة وهي عالقة. يعني: حركتها في المكان بين مختلف مراكزها. وحركتها بين حملَتها وقادتها ومُمثليها. وحركتها المُتطوّرة في عالَم الأفكار. وأعتقد أن ذلك التوصيف هي غاية ما يُعمل لأجله في هذا البحث ومثله.

(٧)

كُنّا قد ركّبنا في ختام الفصل الخامس، (زبدة الفصل)، أبرز النتائج والملاحظات التي كانت مُتفرّقة في الفصل نفسه. الأمر الذي يُغنينا عن العودة إليها في هذه الخاتمة. لكننا في نهاية السعي، من المفيد أن نُجمل الجواب على السؤال الأساسي الذي طرحناه منذ بداية البحث. فنقول إن هناك أربعة عوامل أساسيّة تكاملت بحيث انتهت إلى إطلاق النهضة، هي:

الأول: الاحتلال الصليبي، بما نجم عنه من استلاب كامل لأهل جبل عامل، جعل منهم مجرّد أدوات تعمل له. مقطوعين عن كل مصادر وأسلوب العيش التي تتصل بثقافة أهليه الخاصّة. بوصف ذلك الاستلاب تحدّياً حضارياً. يبدو أن أهل جبل عامل ظلّوا متأهبين له. واستجابوا عليه الاستجابة الصحيحة ما إن أُتيح لهم. على الرّغم من مدّة الاحتلال الطويلة.

الثاني: المبادرات التي أخذها الروّاد الأوائل للنهضة. وما نجم عنها من تجديد للصلة مع المركز العلمي الأول للشيعة الإماميّة آنذاك. بعد أن كانت قد انقطعت مع المنطقة الشاميّة زمناً. بسبب الاضطراب الناجم عن الغزو فالاحتلال. لقد كانت تلك المبادرات عاملاً أساسيّاً جداً في انبعاث النهضة. بدونه ما كان هناك أدنى أمل في حصولها.

الثالث: السياسة العدائيّة للسلطة المملوكيّة نحو الشيعة في غرب الشام. ابتداءً من اجتياح كسروان. ثم تداعياته التي ظلّت تتفاعل مدّة طويلة، مُتخذة أشكالاً عدّة. هذا، بالإضافة إلى التحدّي الأساسي، الذي أصبح الآن تاريخيّاً، شكّل حافزاً قوياً باتجاه التسامي بالثقافة الخاصة

المأزومة. وظهر جلياً في فكر وأعمال بطل النهضة. كما ظهر في الاستجابة السريعة والقويّة عليها عند جمهورها.

الرابع: مُتابعة نهج بطل النهضة، من قِبل العشرات من أبناء المراكز العلميّة العامليّة الستة، طوال القرنين التاليين. من الغني عن البيان أن النهضة لم تكن شيئاً غير تلك السلسلة المتصلة الحلقات من أعمال المُتابعة والتطوير بمُختلف أشكالها.

(٨)

ربما يكون من الضروري أن نُنبّه على أن ليس معنى ختم البحث، والقول بختام النهضة، أن جبل عامل قد خمد من بعدها تماماً. وعاد كما كان من قبلها. كلا! فهذا تصوّر مُجانب للحقيقة. كما أنه مُخالف لطبيعة الأشياء. بل المقصود أنه فقد صفته النهضويّة. بعد أن رحلت النهضة مع المهاجرين من أبنائها. إن الأمر أشبه بنار قد سكن أوارها ولم تنطفئ. فظلّت تبعث حرارة ودفئاً وضوءاً. والحقيقة أن جبل عامل لم يفقد هذه الصفة من بعدها أبداً.

(٩)

أخيراً، إنني أُدرك جيداً أن هذه الدراسة، على ما بُذل فيها من وسع، هي محاولة أُولى. وأن موضوعها يستحق أن يتابعه أهل البحث والنظر. وإنني لآمل أن يفتح جهدي الباب وأن يُمهّد الطريق لمحاولات أكمل وأوفى. ابتغاء كشف جوانبها كافة. خصوصاً وأن موضوعها يقع في الجانب غير المرئي من تاريخنا الرسمي. ولولا ذلك التقليد الجليل، الذي ترك لنا تلك السلسلة البديعة من الإجازات، لكان من غير المحتمَل مجرّد التفكير بكتابة قصّة النهضة. لستُ أعتقد أن أي دراسة على هذه الفترة في المستقبل، أو على بعض أجزائها، ستُدخل تعديلاً أساسياً على النتائج التي وصلنا إليها. والفضل في ذلك لدقّة المعلومات التي استفدناها من الإجازات. من الممكن أنه مع التقدّم في نشر أجزاء مجهولة من التراث العاملي، أن تُنار بعض الأجزاء التي ظلّت مُعتمة. أو أن نصل إلى تفصيلات أوفى لحركة النهضة، أو سِيَر ومُساهمات أعلامها.

والحمد لله

ملحق

فيما بقي من شعر ابن أبي الغيث البُخاري

في رثاء شيخه

أبو القاسم بن الحسين بن العَود الحلبي

المتوفى بجزّين سنة ٦٧٧هـ

عرِّج بجزّين يا مُستبعد النجف ... ففضل من حلّها يا صاح غير خفي
نور ثوى في ثراها فاستضاء به ... وأصبح التُّرب فيها معدن الشرف
نجل الحسين الذي فاق العُلا شرفاً ... وطود علم هوى من خيرة السّلف
حتى إذا عبثت أيدي المنون به ... فأوردته سريعاً مورد التلف
لا تلزموني وإن خفتم على كبدي ... صبراً ولو أنها ذابت من اللّهف
لمثل يومك كان الدمع مُدّخراً ... بالله يا مقلتي سحّي ولا تقفي
لا تحسبن جود عيني بالبكا سرفاً ... بل شحّ عيني محسوب من السرّف
ساوى مصابك بين الناس في حزن ... كأن يُساق له قسط من الأسف
ما زلت تُهدي لهم ما عشت مجتهداً ... نوراً، فمالك من فضلٍ لمُغترف
فأظلمت بعدك الأيام قاطبة ... لمّا اعترى شمسها خطب من الكسف
وقد يُبقّى لنا من بعده خلف ... يا حبذا لك من أصل ومن خلف
كأنهم حين طافوا حول تربته ... بدور تمّ بدت من مطلع السَّدَف
صلّى الإله على تُرب تضمّنه ... لقد تبوّأ أنواعاً من التحف
تُرب تناكره الآمال زائرةً ... من واردٍ نحوه يهوي ومُنصرف

(ذيل مرآة الزمان : ٣/ ٤٣٥-٣٦)

* * *

جُد بالدموع فلستَ نلقى مثله خطباً فتدخّر الدموع لأجله
لا تلجأنّ إلى التصبّر إنما كان التصبّر ملجأ من قبله
تبغي السّلوّ به وتلك شريعة نُسخت وغُيّر حكمها من أصله
هذا نجيب الدين أصبح ثاوياً في لحده مُتفرّداً من أهله
مات الهدى وتهدّمت أركانه إذ مات، واندرست معالم فضله
فالآن قد طاب البكاء ولذّ لي ما كنتُ أُحرس مُقلتي من مثله
فلأبكينّك ما حييت بكاء مَن قرحت حشاشته بحرقة ثكله
متسربلاً جلباب حزن لم يزل ولهان لم يحفل بوافر عدله
مَن للضعيف أتاك مقتبساً هدىً يشكو العناية هارباً من جهله
حتى إذا ما حلّ ربعك غلّة في ريقه فأرحته من غلّه
مَن للدروس مُبيّناً إشكالها تبدو غوامضها بواضح فضله
ما زلتَ للدين الحنيف مكابداً حتى استبان حرامه من حلّه
فجُزيت خيراً من إمام عصابة وضح السبيل بقوله وبفعله
جعلوك سُبلهم إلى باريهم فأريتهم حقاً معالم سُبله
ومقسّماً لحظاته ما بينهم كلٌّ يرى ما يرتضي من عدله
ومُراقباً حال الضعيف معاهداً لا يزدريه لضعفه ولِعلّه
جعلوك ظهرهم وكلٌّ منهم يرجو قواك بأن تقوم بحمله
فازت مصابيح الهداية بعدما ركض الضلال بخيله وبرَجله
فالآن قد صار الزمان جميعه ليلاً يحير مَن يسير بظلّه
كذباً يموت صبابةً في شؤمه لولا الترجّي في أفاضل نسله
حاشا علاه أن يموت وإنما علم الإله نعيمه في نقله
ودّت قلوب العارفين بأنها دون التراب محلّه لمحلّه
صلّى الإله على قرى حلب صلواته من فضله أو نفله
كلاّ ولا برح الغمام مداوماً يهمي عليه بطلّه وبوبله

(ذيل مرآة الزمان: ٣/ ٤٣٨-٣٩)

«ولما تشيع السلطان خُدابندا [محمد أرغون بن هولاكو] قال جمال الدين بن الحُسام المقيم بقرية مجدل سلم من بلاد صفد يمدحه» :

أهدي إلى ملك الملوك دعائي ... وأخصّه بمدائحي وثنائي
وإذا الورى والوا ملوكاً غيره ... جهلاً ففيه عقيدتي وولائي
هذا خدابندا محمد الذي ... ساد الملوك بدولة غرّاء
ملكُ البسيطة والذي دانت له ... أكنافها طوعاً بغير عناء
أغنتك هيبتك التي أُعطيتها ... عن صارم أو صَعْدة سمراء
ولقد لبست من الشجاعة حُلّة ... تُغنيك عن جيش ورفع لواء
ملأ البسيطة رغبةً ومهابةً ... فالناس بين مخافة ورجاء
من حوله عصب كآساد الشرى ... لا يرهبون الموت يوم لقاء
وإذا ركبت سرى أمامك للصدى ... رعب يقلقل أنفس الأعداء
ولقد نشرت العدل حتى إنه ... قد عمّ في الأموات والأحياء
فليهنَ ديناً أنت تنصر ملكه ... وطبيبه الداري بحسم الداء
نبّهته بعد الخمول فأصبحت ... تعلو بهمته على الجوزاء
وبسطت فيه بذكر آل محمد ... فوق المنابر ألسن الخطباء
وغدت دراهمك الشريفة نقشها ... باسم النبي وسيّد الخلفاء
ونقشت أسماء الأئمة بعده ... أحسن بذاك النقش والأسماء
ولقد حفظت عن النبي وصيّة ... ورفعت قرباه على القرباء
فابشر بها يوم المعاد ذخيرة ... يجزيكها الرحمن خير جزاء
يا بن الأكاسرة الملوك تقدّموا ... وورثت ملكهم وكل علاء

***

هل عاينت عيناك أعجوبة ... كمثل ما قد عاينت عيني
مصباح ليل مُشرق نوره ... والشمس منه قاب قوسين

***

قامت تودّعني فقلت لها امهلي ... حتى أودّع قبل ذاك حياتي
فإذا عزمت على الرحيل تركتني ... رهن البلى ومجاور الأموات

(نفسه : ٦/ ٨٢)

***

محمد بن علي بن خاتون أمير جملة « أمير أمراء الدولة القطبشاتية في الهند»

(عن صورة له محفوظة في المتحف البريطاني)